

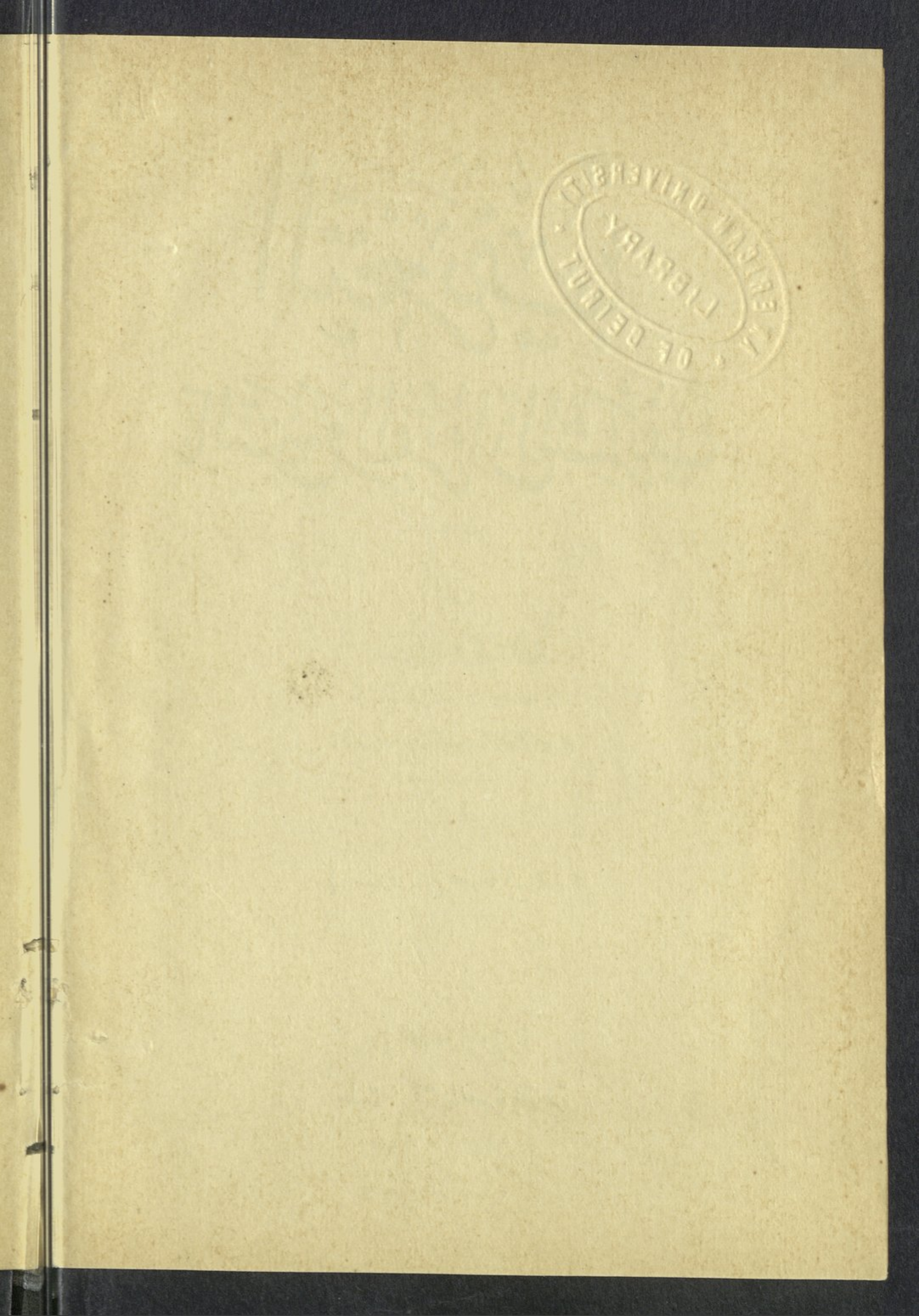
تأليف

السيد محمد على الببلاوى
نقيب السادة الأشراف بالديار المصرية
ومراقب احياء الآداب العربية بدار الكتب المصرية

[الطبعة الأولى]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

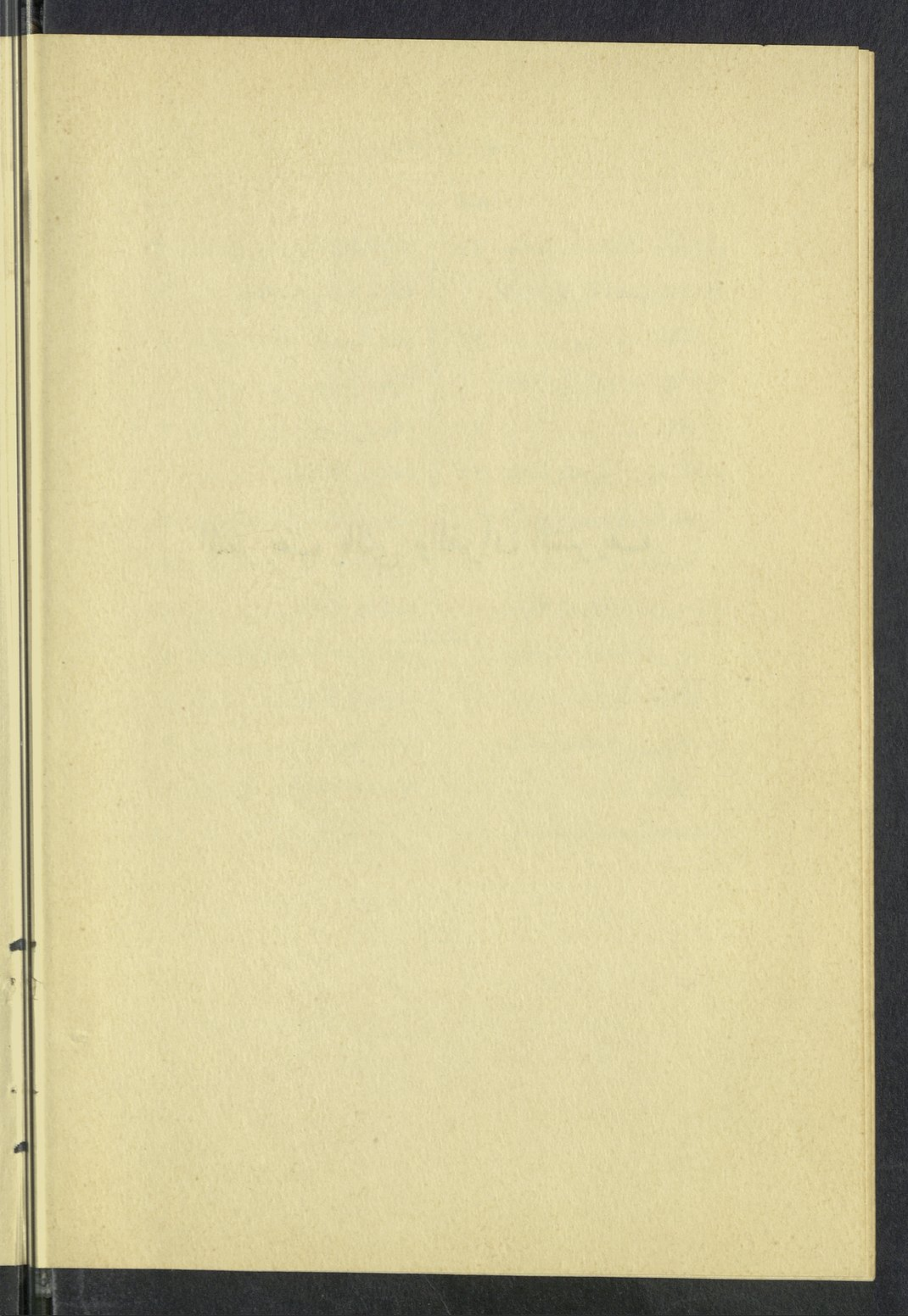
١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م



فهـــرس الكتاب

فهرس الكتاب

التعريف بالنبي والقرآن الشريف



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله المُرْتَضَى وحبيبه المُجْتَبى وعلى آله وأصحابه الذين كَانُوا يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا .

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

كثر تحدث الناس الآن، فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم «إنَّ هذا القرآنَ أُنزلَ على سبعةِ أحرفٍ فَاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ منه» وتذرّع بذلك بعض من لا خلاق لهم من الفضيلة، الى الغمز واللمز فى الدين، لشىء أشربته قلوبهم، فدعتنى الرأفة بالنشء، والشفقة عليهم، أن أميط

اللثام عن وجه الحق ، فى المقصود من هذا الحديث ، فتم لى ما أردت ، بعون الله وتوفيقه ، وحررت المقصود من هذا الحديث الشريف ، تحريرا لايدع الشك يتسرب الى تلك النفوس الغضة ، والقلوب التى لو تُعهدت بالارشاد الصحيح ، لكانت للإسلام خيرا وبركة .

وقد رأيت بعد أن تم لى تحرير ما أردت ، أن أضمه الى يسير من التعريف بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وحياته قبل النبوة وبعدها ، وطرف من التعريف بالقرآن الكريم ، وإنزاله ، وجمعه ، وأثره فى العالم أجمع ، وأن من حاد عن التمسك به ، خاب وهلك ، ومن استمسك به ، واتبع هداه ، فاز وسعد ، فسهل الله ذلك .
وأرجو أن يصل هذا "التعريف ، بالنبي ، والقرآن الشريف" الى القلوب ، من أقرب الطرق ، وأوسع الأبواب ، وما ذلك على الله بعزيز ه

محمد الببلاوى

التعريف بالنبي صلى الله عليه وسلم

نسـبه صلى الله عليه وسلم

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى ، ينتهى نسبه الشريف ، الى اسماعيل بن ابراهيم ، أبى الأنبياء عليهم الصلاة والسـلام .

وأمه آمنـة ، بنت وهب ، من بنى زُهْرَة ، ومن أشرف بيوت قريش .

ميـلاده صلى الله عايه وسلم

ولد صلى الله عليه وسـلم ، فى صباح اليوم الثانى عشر ، من ربيع الأول ، عام الفيل على المشهور ، أو صباح اليوم التاسع من هـذا الشهر ، الموافق (٢٠ أبريل سنة ٥٧١) من ميلاد المسـيح ، عليه السلام ، على ما حققه المرحوم ، محمود باشا الفلكى ، فى رسالته نتائج الأفهام .

وفاة والده ووالدته صلى الله عليه وسلم

تُوُفِّيَ والده قبل ولادته، ولم يترك له كثير مال . وفى السادسة من عمره، توفيت والدته .

حضانة جدّه له

فاحتضنه جدّه عبد المطلب، وكان له محبا ومكرما .

وفاة جدّه، ووصيته به الى عمه أبى طالب

وفى الثامنة من عمره، تُوُفِّيَ جدّه، وأوصى به قبل وفاته الى أبى طالب، شقيق أبيه، فتولى كفالته، وكان شهما كريما، سمحا جوادا، لكنه كان فقيرا، لا يملك كَفاف أهله، فحَسُنت حاله، وصلح رزقه، فكانت كفالته لابن أخيه، خيرا وبركة، عليه وعلى أولاده .

نِشأته صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم، على ما به من اليتم، وقلة المال، يَشِبُّ على غير ما يُعهد فيمن اتصف بهذين الوصفين، فقد كان

يَنمو بدنا وقوة، وعقلا وأدبا، حتى عُرِف بين أهل مكة فى رَيْعان شبابه، بالأمين .

تأديب الله تعالى له صلى الله عليه وسلم

أدّبه الله تعالى أدبا، لم تجر العادة بأن تزين به نفوس اليتامى الذين قل مالهم، ومال القوّام عليهم، مع كونه بين أتراب، من نبت الجاهلية، وعُشَرَاء من حلفاء الوثنية، ولم يكن له أستاذ يهذِّبه، ولا مثقِّف يؤدّبه، وإنما هى عناية الله تحفظه وترعاه .

فاكتهل صلى الله عليه وسلم، وهو على أتم ما تترّكى به روح، وأكمل ما تتحلى به نفس، من جميل الصفات، وحميد الخصال .

كفاك بالعلم فى الأمىّ معجزة * فى الجاهلية والتأديب فى اليُتُم

حفظ الله تعالى له مما يُطبع فى نفوس الأطفال

وقد جرت سنة الله تعالى، أن الطفل يُطْبَع فى نفسه ما يراه، ويُؤثِّر فى عقله ما يسمعه من أول نشأته، لا سيما من فقد والديه، وقلَّ ماله، واحتاج الى كافل يكفله، وعائل يعوله، ولو جرى الأمر على المألوف، لَشبَّ محمد (حاشاه) مشاركا لقومه، فى تعظيم

الأصنام وعبادتها ، ولانغمس فى ضلالات الوثنية ، وأوهامها وخرافاتها، ولكنّ أمره عليه الصلاة والسلام لم يكن كذلك .

بغضه صلى الله عليه وسلم للوثنية من أوّل حياته

قد بُغّضت اليه صلى الله عليه وسلم الوثنية، من أول حياته، فلم يسجد للأصنام، ولم يَحْفِل مع قومه بعيد من أعيادها، ولم يأكل مما كان يذبح قربانا لها، ولم يكن ذلك بنهى ناهٍ، ولا إرشاد مرشد، بل بادرته طهارة العقيدة، كما لازمه حسن الخلق .

أكله صلى الله عليه وسلم من ثمرة عمله واتجاره فى مال السيدة خديجة

كان صلى الله عليه وسلم لما شب ، يأكل من ثمرة عمله ، وكسب يده، وكان يشتغل بالتجارة، ولِما اشتهر به من الصدق والأمانة، طلبت اليه السيدة خديجة ، أن يتجر فى مالها (وكانت سيدة شريفة ذات ثروة وتجارة) على أن يكون له من الربح، أفضل ما كان يأخذه غيره، فسافر الى الشام مع غلامها مَيْسَرَة ، فبارك الله فى تجارتها، وربحا ربحا عظيما .

خِطبة السيدة خديجة إياه صلى الله عليه وسلم لنفسها ورضاه بتلك الخِطبة

ولما عاد الى مكة ، ورأت خديجة هذا الربح العظيم ، وكانت تعلم ماعليه السيد الأمين ، صلوات الله وسلامه عليه ، من الأخلاق الجميلة ، والسجايا الكريمة ، أرسلت اليه تخطبه لنفسها ، وقالت له : يابن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرابتك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، فرضى زواجها ، وذكر ذلك لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب [1] ، حتى دخل على خُوَيْلد بن أسد ، والدها فخطبها اليه ، فزوّجه بها ، فكانت أمّ أولاده كلهم ، إلا ابراهيم [2] وكانت سنه إذ ذاك ، خمسا وعشرين سنة ، وسنها أربعين سنة ، وقد كان لها من جليل الأثر فى الإسلام أوفر نصيب .

---

(١) حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله وأخوه من الرضاع ولد قبل ولادة النبي صلى الله عليه وسلم بسنتين وأسلم فى السنة الثانية من البعثة ولازم نصر رسول الله وهاجر معه واستشهد بأحد فى النصف من شوّال سنة ٣ للهجرة .

(٢) ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مارية توفى طفلا فى حياة أبيه .

زهده فى الحياة الدنيا مع استطاعة الرفاهية

قد كان لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، مما يجتنيه من ثمرة عمله، ومن مال زوجه، ما يُرَفِّه معيشته ويكون عونا له، على أن يبلغ ما عليه أكابر قريش، وأغنياؤهم، لكنه رغب عن الدنيا، ولم يَرُقْه زخرفها، ولم يغتر بنعيمها، وكان كلما تقدمت به السن، زاد إعراضا عما كان عليه غيره، من لذات الحياة، ونما فيه حب الانفراد، والانقطاع الى مراقبة الله تعالى، والتعبد بمناجاته .

تعبده صلى الله عليه وسلم بغار حِراءٍ

قد كان صلى الله عليه وسلم، يخلو بغار حراء[1]، فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد، فتارة عشر ليال، وتارة أكثر، يأخذ لذلك زاده، فاذا فرغ، رجع الى بيته، فتزود لمثلها .

حكمة تَعَبُّده صلى الله عليه وسلم بغار حِرَاءٍ

وكأنّ الله سبحانه وتعالى قد ألهمه ذلك، لتصفو نفسه، ويتوجه روحه الشريف، الى عالم غير عالم المادة، ويستعدّ لما

(١) جبل قريب من مكة .

سيكرمه الله به، من تلقى وحيه، وإنقاذ خلقه، مما كانوا فيه من الشرور والآثام .

مجىء الملك له صلى الله عليه وسلم فى غار حِرَاءٍ

وبينما كان صلى الله عليه وسلم فى ذلك الغار، على جارى عادته، جاءه الملك، فقال : (إقرأ . قالها ثلاثا، ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول له فى كل مرة : ما أنا بقارئ[١] ثم قال له فى الرابعة : ﴿إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ إقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ قال فقرأتها، وكأنما كُتِبَتْ فى قلبى كَتْبا .

تاريخ مجىء الملك اليه صلى لله عليه وسلم

وكان ذلك فى يوم الاثنين، لسبع عشرة خلت من رمضان، من السنة الحادية والأربعين من مولده، فرجع الى خديجة مضطربا من شدّة ما عاناه من رؤية الملك .

(١) أى لست ممن تعلم القراءة فلا أستطيع أن أقرأ .

إخباره السيدة خديجة بما رأى

ثم أخبرها خَبَرَ ما رأى ، فبشرته وطمْأَنته ، وقالت له : والذى نفس خديجة بيده ، لا يُخْزِيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتَصْدُق الحديثَ ، وتؤدّى الأمانة وتحمل الكَلَّ (١) ، وتَقْرى الضيف ، وتعين على نوائب (٢) الحق ، .

إخبار السيدة خديجة ابنَ عمها وَرَقَة بما رآه صلى الله عليه وسلم

وكان لخديجة ابن عم ، اسمه ورقة بن نَوْفَل (٣) ، قد تنصر وسمع من أهل الكتاب التوراة والانجيل ، فأخبرته بما رأى محمد عليه الصلاة والسلام ، فقال لها : لئن كنتِ صدَقتِني يا خديجة ، لقد جاءه

---

(١) تحمل تعين والكَل العاجز .

(٢) النوائب النوازل والحوادث والحق هنا ما قضاه الله وقدره .

(٣) ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، كان قد ترك عبادة الأوثان» وعدّه بعض المؤرخين فى الصحابة وتوفى قبل اعلان الدعوة الى الاسلام .

الناموس[١] الأكبر، الذى كان يأتى موسى ، وانه لنبيّ هذه الأمة، فقولى له ، فليثبت . فطمأنته بما قال ورقة .

فترة الوحى ثم نزوله

ثم فتر الوحى مدّة ، حتى اشتدّ شوق رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه، ثم نزل عليه بعد ذلك ، قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ .

قيامه صلى الله عليه وسلم بأعباء الرسالة

فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ، وحيدا فريدا ، لا جند ينصره، ولامعين يؤازره، وما هو إلا وحى الله تعالى يُمِدُّه، وتوفيقه يسدّده، وعنايته تؤيده .

دعاؤه صلى الله عليه وسلم الناس الى الله تعالى سرا

دعا صلى الله عليه وسلم الى الله تعالى، فى أول أمره سرا،وكان أوّلَ من هدى اللهُ تعالى قلبَه الى الاسلام ، خديجةُ بنت خويلد

---

(١) هو جبريل ملك الوحى .

زوجه، وأبو بكر(١) رضى الله تعالى عنه، وعلىّ بن أبى طالب(٢) كرم الله وجهه، ونفرٌ ممن كانوا يحبون الحق، ولم يداخلهم حسد، ولم يصدّهم عناد ولا استكبار.

أمر الله تعالى له صلى الله عليه وسلم أن يدعو اليه جهرا

و بعد ثلاث سنين من رسالته عليه الصلاة والسلام، أُمِرَ أن يجهر بالدعوة، فى قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾، فأعلن لقريش الدعوة، الى توحيد الله تعالى،

---

(١) هو عبدالله بن عثمان بن عامر ينتهى الى تيم بن مرة بن كعب بن لؤى صديق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وخليفته الأوّل وأوّل من جمع القرآن فى صحف وأوّل سابق من الرجال الى الاسلام ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر وتوفى فى جمادى الأولى سنة ١٣ للهجرة وكانت مدّة خلافته سنتين وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوما .

(٢) على بن أبى طالب ابن عم رسول الله شقيق أبيه ولد قبل البعثة بعشر سنين وربى فى حجر رسول الله وهو أوّل من أسلم من الصبيان زوّجه رسول الله ابنته فاطمة الزهراء وكان نعم العبد وهو الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين توفى ليلة السابع عشر من رمضان سنة ٤٠ للهجرة .

والاخلاص له ، وترك تعظيم الأصنام وعبادتها ، وتبع ذلك أَنْ عابها وذمّها ، وجَهَّلَ عُبَّادَها ، وأنذرهم سوء المصير ، ان لم يُقلعوا عن اتخاذها من دون الله تعالى آلهة ، فنفروا منه ، وناصبوه العداوة .

مالاقاه صلى الله عليه وسلم من الإيذاء والإهانة من قومه

قد لاقى رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، من الإهانة والإيذاء ، ما لاقى قبله الأنبياء والمرسلون ، والهداة المصلحون ، وهو مع ذلك ماضٍ لشأنه ، يدعو قومه ، ويتلو عليهم ما يُوحَى اليه من ربه ، مبشرا من آمن به واتبع سبيله ، ومنذرا من خالفه وكذّبه ، لا يَثنيه إيذاء ، ولا يُرهبه وعيد .

حماية السيدة خديجة وعمه أبي طالب له صلى الله عليه وسلم

وقد جعل الله تعالى ، له من عمه أبي طالب ، حاميا يذود عنه ، ويقوم دونه ، فى بعض ما يراد به من كيد وشر ، ومن زوجه

السيدة العاقلة الفاضلة ، مؤاسيا يعطف عليـه ويثبّته ، ويخفف عنه وقع ما يلاقى .

ما أصاب أصحـابه صلى الله عليه وسـلم من الأذى والاضطهاد

وقـد أصاب أصحـابَه الذين آمنوا ، كثير من أذى الكفار واضطهادهم ، فاحتملوا وصبروا على ما أُوذُوا ، إبتغاء رضوان الله تعـالى ، ومحبة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من هاجر من مكة الى الحبشة ، فرارا بدينهم ، من أن يُفتَنُوا فيه .

مكثه صلى الله عليه وسـلم على هـذه الحال بمكة عشر سـنوات

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، على هذه الحال ، يدعو الى الله تعالى ، غير مبال بمـا يناله ، من أذى سـفهاء قومه وتكذيبهم ، ورغم ذلك ، فقـد كان المسلمون فى ازدياد ، من قريش ، ومن غيرهم من العرب .

وفاة زوجه السيدة خديجة وعمه أبي طالب في السنة العاشرة

وفى السنة العاشرة من رسالته ، أصيب بمصاب عظيم ، هوموت عمه أبى طالب ، وزوجه السيدة خديجة ، رضى الله عنهما ، تُوُفِّيَا فى يومين متقاربين ، فحزن لذلك حزنا شديدا ، حتى سَمَّى عام وفاتهما ، عام الحزن .

اشتداد إيذاء قريش له ، ولأصحابه ، بعد وفاة عمه

وقد اشتدّ عليه وعلى أصحابه بعد ذلك ، أذى الكفار من قريش ، ونالوا منهم ما لم ينالوا فى حياة عمه .

عرضه نفسه على القادمين الى مكة فى مواسم الحج

فكان صلى الله عليه وسلم ، يَعْرِضُ نفسَه على القادمين الى مكة فى مواسم الحج ، من قبائل العرب ، ويقرأ عليهم القرآن ، ويطلب اليهم أن يُسْلِموا ، ويمنعوا عنه أذى قومه ، فلا يستجيبون له .

ايمان نفر من الخزرج ووعدهم له صلى الله عليه وسلم بتبليغ قومهم

وقد أجابه صلى الله عليه وسلم ستة نفر[١] من الخَزْرَج الى الاسلام ، ووعدوه أن يُبَلِّغوا قومهم ، وقالوا له : إن جمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك ، فلما رجعوا ذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم الى الاسلام ، ففشا فيهم ، ولم تبق دار فى المدينة إلا وفيها ذكره .

كثرة المسلمين من الأَوْس والخَزْرَج[٢]

ولما كثر المسلمون من الأوس والخزرج ، فى المدينة بعث اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه[٣] ، رجلا يُقرئهم القرآن ، ويُعلِّمهم أمر دينهم ، ويؤمهم فى صلواتهم .

---

(١) النفر من ثلاثة الى عشرة أو الى سبعة وهم هنا أسعد بن زرارة وجابر بن عبد الله ابن رئاب وقطبة بن عامر ورافع بن مالك وعقبة بن عامر بن زيد وعوف بن مالك .

(٢) الأوس والخزرج قبيلتان تسكنان المدينة .

(٣) هو مصعب بن عمير بن هاشم القرشى العبدرى (من بنى عبد الدار بن قصى) يكنى أبا عبد الله وهو من السابقين الى الاسلام وكان معه اللواء فى غزوة أحد ومات بها .

قدوم كثيرين من أهل المدينة الى مكة للحج ومعاهدتهم له صلى الله عليه وسلم

فلما كانت السنة الثالثة عشرة من البعثة ، قدم الى مكة من أهل المدينة عدد كثير ، يريدون الحج ، فاجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليلا خارج مكة ، وعاهدوه ، إن هو هاجر اليهم ، على أن يدافعوا عنه ، ويمنعوه ، مما يمنعون منه أنفسهم ، وأهليهم ، فكانوا أنصاره صلى الله عليه وسلم على أعدائه .

وفى هؤلاء يقول الله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

أمر الله تعالى له بالهجرة الى المدينة

بعد ذلك أمر الرسول أصحابه ، بالهجرة الى المدينة ، واللحاق باخوانهم من الأنصار ، فخرجوا ، إلا قليلا من المستضعفين ، منعهم الكفار من الخروج .

تآمُرُ المشركين على قتله حين بلغهم عزمه صلى الله عليه وسلم على الهجرة

ولما أحس المشركون أنه قد عزم على الخروج من مكة ، تآمروا على قتله ، فنجّاه الله تعالى من كيدهم ، وردّه فى نحرهم .

هجرته صلى الله عليه وسلم مع سيدنا أبى بكر وإنجاء الله تعالى لهما

خرج صلى الله عليه وسلم ، فى الليلة التى هَمُّوا فيها بتنفيذ ما اتفقوا عليه ، يصحبه صدّيقه أبو بكر ، رضى الله عنه ، فوصلا الى المدينة ، يوم الجمعة ، الثانى عشر من ربيع الأول ، سنة ثلاث وخمسين من مولده ، صلى الله عليه وسلم وهو يوافق (٢٤ سبتمبر سنة ٦٢٢ من مولد عيسى عليه السلام) .

إعزاز الله تعالى الاسلام بهذه الهجرة المباركة

أعز الله تعالى الاسلام ، وأعلى مناره ، وقَوَّى رسوله ، بالأنصار والمهاجرين ، وبمن دخل فى دين الله تعالى ، من قبائل

العرب ، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

دعوته صلى الله عليه وسلم سِلْمِيَّة أساسها الدليل والبرهان

كانت دعوة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، الى الدين ، سِلْمِيَّة ، أساسها الدليل والبرهان ، واسلام من أسلم إنما كان عن اقتناع بصدق الداعى ، وصحة ما يدعو اليه ، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ . ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ .

إذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم بالقتال إنما هو لمنع الاعتداء وحماية الدعوة

ولكن الله الحكيم ، أَذِنَ للمسلمين فى القتال ، دفاعا عن أنفسهم ، ومنعا لاعتداء المعتدين ، وحماية للدعوة ، ممن يصدّ الناس عن الدخول فى الاسلام ، أو يَفْتِنَهُمْ ، أو يعذّبهم ، إذا دخلوا فيه ، قال الله تعالى : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ

لَقَدِيرٌ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ . وقال تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ .

فقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، مَنْ عُرِفُوا بعدائهم الشديد للاسلام ، من كفار قريش سكان مكة ، واليهود الذين كانوا ساكنين بالقرب من المدينة ، وغيرهم ، من قبائل العرب ، ونصره الله عليهم جميعا ، فى غزوات كثيرة .

أهم الغَزَوَاتِ غزوة فتح مكة

وأهم الغَزَوَاتِ ، تلك الغزوة التى فُتِحَتْ فيها مكة ، ودخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون معه ، أعزاء آمنين ، بعد أن كانوا مستضعَفين ، وخرجوا منها خائفين ، وكان ذلك فى السنة الثامنة ، من هجرته صلى الله عليه وسلم .

القضاء على الوثنية فى جزيرة العرب

وقد دخل فى الاسلام هذا اليوم ، مُعْظَمُ قريش ، لم يتخلف منهم إلا القليل ، أسلموا من بعد ، ويُعْتَبَر إسلام قريش ، قضاء

على الوثنيــة ، فى جزيرة العرب ، لأنهـم كانوا يعدُّون حُماتَها وأنصارها .

شروع الوفود فى المجىء الى الرسول صلى الله عليه وسلم من أنحـاء الجـزيرة

بعد هذا شرعت الوفود ، من أنحاء الجزيرة ، تَفِدُ على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وكلهم قد دَانَ بالاسلام ، وخضع لأحكامـه .

وما وافت السـنة العاشرة للهجرة ، حتى عمّ نوره أرجاء البلاد العربية ، وحتى كان مع رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فى حجة الوَداع ، آخرَ هذه السنة أكثر من مائة ألف ، من المسلمين ، ومَنْ لم يَحضُر منهم هذه الحجة ، كان أضعاف ذلك .

نزول ختام القرآن الكريم

وقد نزل ختام القرآن الكريم ، يوم عرفة ، فى تلك الحجة ، وهو قوله تعـالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾ .

طَرَفٌ من أخلاقه صلى الله عليه وسلم

كان صلى الله عليه وسلم، على أكمل الأخلاق الكريمة وأتمها، وصفه الله تعالى بذلك فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾. وقال تعالى ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ» ولا يتمها إلا من كان كاملا فيها.

أمانة النبي الكريم

عرف منذ نشأ بالأمانة والصدق، وهما من أخص صفات الأنبياء والمرسلين، عليهم السلام، لم يقع منه فى ذلك هفوة، ولم تحفظ عنه زلة، حتى اشتهر بين قومه، وهو فى رَيْعَانِ شبابه، بالأمين، وكانوا يُودِعُونَه ودائعهم، ويستحفظونه أماناتهم، ولما اختلفت قريش، عند بناء الكعبة، فيمن يضع الحجر الأسود، حَكَّموا أوَّلَ داخل عليهم، فاذا محمد صلى الله عليه وسلم داخل، وذلك قبل النبوة، فقالوا: هذا محمد، هذا الأمين، قد رَضِيناه حَكَمًا.

صدقه عليه السلام

وقد لقى رجل أبا جهل[1] وكان أبو جهل من ألد أعداء الرسول بعد رسالته ، فقال له الرجل : يا أبا الحَكَم ، ليس هنا غيرى وغيرك ، يسمع كلامنا ، فخبِّرنى عن محمد ، صادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق ، وما كذب محمد قط ، ومع ذلك لم يؤمن به أبو جهل ، عنادا واستكبارا .

وسأل هِرَقْلُ[2] عنه أبا سفيان[3] ، قبل أن يسلم أبو سفيان ، فقال : هل كنتم تتهمونه بالكذب ، قبل أن يقول ما قال ، قال : لا .

---

(١) عمرو بن هشام المخزومى من ألد أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم مات مشركا فى غزوة بدر .

(٢) ملك الدولة الرومانية الشرقية فى القسطنطينية حكم من (٦١٠ — ٦٤١ ميلادية) وفى أيامه فتح المسلمون دمشق و بيت المقدس وفلسطين ومصر .

(٣) هو صخر بن أمية القرشى الأموى وهو والد أمير المؤمنين معاوية ولد قبل ميلاد النبي بعشر سنين أسلم عام فتح مكة وشهد غزو حنين والطائف واليرموك ومات سنة ٣٢ فى خلافة عثمان .

وقال النَّضْرُ بن الحارث[١] لقريش المكذِّبين لمحمد صلى الله عليه وسلم : قد كان محمد فيكم غلاما حَدَثا أرْضاكم فيكم ، وأصدقَكُم حديثا ، وأعظمَكُم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغَيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم ساحر ، لا والله ، ما هو ساحر .

فهذه شهادة ثلاثة ، من أعاظم قريش ، اتفقوا على صدقه ، ولم يكونوا مؤمنين به وقت هذه الشهادة ، كِبْرًا وأَنَفَةً . (وأصدق شهودك أعداؤك) . (والفضل ما شهدت به الأعداء) .

صبره عليه السلام

وقد اتصف صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وشدّة الاحتمال ، والعفو عند المقدُرة ، كان لا يزيد مع كثرة الأذى ، إلا صبرا ، وعلى اسراف الجاهل ، إلا حلما ، لقى فى سبيل الله تعالى الشدائد ، وتعرض للمكاره ، وهو لا يزداد إلا ثباتا ، ومَضاء ، وإقداما ،

---

(١) النضر بن الحارث بن علقمة بن كَلَدة بن عبد الدار القرشى العبدرى قيل أنه أسلم عام فتح مكة وتوفى عام اليرموك (وادى فى أطراف الشام ينتهى الى نهر الأردن) فى خلافة أبى بكر .

ويقول والله لو وضعوا (يريد قريشا) الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يُظْهره الله ، أو أهلِك دونه ، ما تركته .

ولمَّا أصابه من قريش ، ما أصابه يوم أُحُد ، شق ذلك على أصحابه ، وقالوا : لو دعوتَ عليهم ، فقال : إنى لم أُبْعَثْ لَعَّانا ، ولكن بُعثتُ داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون .

عفوه عليه السلام

لقد أراد بعض أعدائه أن يَفْتِك به ، فتصدّى له ، وهو قائل(١) وحده ، فى ظل شجرة ، فلم ينتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا والرجل قائم ، والسيف مُصْلَتٌ فى يده ، فقال : من يمنعك منى ، قال : اللهُ ، فسقط السيف من يده ، فأخذه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : من يمنعك منى ، قال : كن خير آخذ ، فتركه ، وعفا عنه ، فرجع الرجل الى قومه ، فقال لهم : جئتكم من عند خير الناس .

---

(١) أى نائم فى وسط النهار .

وأى عفو، أكبر من عفوه عن قريش، وقد أظهره الله عليهم، وحَكَّمه فيهم، يوم الفتح (فتح مكة)، بعد أن قاسى منهم ما قاسى، من الشدائد، وهم لا يشكون فى أن يُبيدهم، ويستأصل شَأْفَتهم [(١)]، فما زاد على أن قال لهم: ما تظنون أَنى فاعل بكم، قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاءُ.

شجاعته عليه السلام

أما الشجاعة، والنَّجْدة، فقد كان صلى الله عليه وسلم منهما، بالمكان الذى لا يُجهل، حضر المواقف الصعبة، وفر الكماة والأبطال عنه، وهو ثابت لا يبرح، ومُقْبِل لا يُدْبِر ولا يتزحزح، قال على رضى الله عنه، وهو ما هو شجاعة ونَجدة: انا كنا اذا اشتدّ البأس، واحمرت الحَدَق، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقربَ الى العدوّ منه.

---

(١) أى يزيلهم من أصلهم ويمحو أثرهم.

كرمه عليه السلام

كان عليه الصلاة والسلام لا يُبارَى جودا ، وسخاء ، وسماحة نفس ، وصفه بذلك كل من عرفه ، وكانت حاله فى ذلك قبل النبوة ، كما كانت بعدها .

فقد قالت له خديجة رضى الله عنها حين رجع اليها يرجُفُ فؤادُه بعد نزول الوحى عليه : كلّا ما يُخْزِيكَ اللهُ أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتَحمِلُ الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ (١) ، وتَقرى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق .

وكان جابر (٢) بن عبد الله يقول : ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لا ، وقال ابن عباس (٣) رضى الله عنهما : كان النبى

(١) أى تعطى المحتاج ما يعز فلا يوجد .

(٢) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم الأنصارى أحد المكثيرين عن النبى صلى الله عليه وسلم وروى عنه جماعة من الصحابة وكانت له حلقة فى المسجد النبوى يؤخذ عنه فيها العلم مات سنة ٧٤ للهجرة .

(٣) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم الملقب ترجمان القرآن ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وتوفى بالطائف سنة ثمان وستين من الهجرة .

صلى الله عليه وسلم، أجودَ الناس بالخير، وأجْودَ ما كان، فى شهر رمضان، وروى أنه حُمل اليه، تسعون ألف درهم، فقام اليها يقسمها، فما ردّ سائلا حتى فرغ منها .

معاملته عليه السلام

كان صلى الله عليه وسلم، كريم العِشْرة، رءوفا رحيما بأصحابه، بهذا وصفه الله تعالى فى كتابه : ﴿ بالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ . كان يعطى كل واحد من جلسائه نصيبه، لا يَحسَب جليسه، أن أحدا أكرم عليه منه، قد وسع الناس خُلقه، فصار لهم أبا، وصاروا عنده فى الحق سواء .

تواضعه عليه السلام

كان عليه الصلاة والسلام أشدّ الناس تواضعا، وأبعدهم من كِبْر، يعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويتفقد أحوالهم، ويجلس بين أصحابه، مختلطا بهم، حيثما انتهى به المجلس جلس .

رُوِىَ أنه خرج على أصحابه يوما، فقاموا له، فقال : لاتقوموا كما يقوم الأعاجم، يعظّم بعضهم بعضا، وقال : انما أنا عبد آكل

كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد ، ودخل عليه رجل ، فأصابته من هيبته رِعْدة، فقال له : هَوِّن عليك، فانى لست بملِك، انما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد[1] .

وقاره عليه السلام

كان صلى الله عليه وسلم ، أوقر الناس فى مجلسه، لايتكلم فى غير حاجة، ويُعْرِض عمن يتكلم بغير جميل، وكان ضَحِكه تبسما، وكلامه قَصْدًا، لا فُضُول فيه، وكان ضَحِك أصحابه عنده، التبسم، توقيرا له واقتداء به، مجلسه مجلس علم، وحياء، وخير، وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تُنْتَهَك فيه الحُرَم .

هذا طرف يسير من أخلاقه صلى الله عليه وسلم، واجمال القول، ان الله قد كمله، وحلّاه بالصفات الحميدة، والسجايا الكريمة، فَلَانَتْ له القلوب، بعد جحودها ، واطمأنت اليه النفوس، بعد نفورها، وأجمع أصحابه على محبته ، وبذلوا مُهَجَهم فى تأييد الحق ، الذى يدعو اليه، ونصرته .

---

(١) القديد اللحم المجفف .

وفاته عليه السلام

فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمر كذلك الى يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول من هذه السنة (٨ يونيه سنة ٦٣٢)، وفيه لحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى، وسنه ٦٣ سنة .

وقد نعاه الى أصحابه ، أبو بكر رضى الله عنه ، وقال لهم ، وهم مجتمعون وقد ملكتهم الدهشة : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فانَّ الله حى لا يموت ، ثم تلا عليهم قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ، صلى الله عليه ، وعلى آله ، وأصحابه ، أجمعين .

خلاصة

تَبَيَّنَ من موجز سيرة هذا النبي الكريم ، أن مدّة رسالته ثلاث وعشرون سنة ، مضى منها بمكة ثلاث عشرة سنة ، يدعو

قريشا الى الإيمان، فلا يستجيبون له ، إلا قليل منهم، مع نفر من غيرهم ، وتحمّل فى ذلك من صنوف الايذاء، وضروب الاضطهاد ما لا يطاق احتماله ، إلا بتثبيت من الله تعالى، وقضّى بالمدينة عشر سنين، وهو الزمن الذى قويت فيه الدعوة، وانتشر الإسلام بين قبائل العرب ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، حتى عمّ الجزيرة، وتحولت فيه تلك الأمة الأمّية، الجاهلية الوثنية، المتنافرة المتخاذلة، الى أمة متعلمة موحّدة، متآلفة متناصرة .

إصلاح عجيب ، مدهش فى سرعته، مدهش فى إحكامه، إصلاح شمل سعادة الروح، ومطالب الجسد، على حدّ التوسط والاعتدال ، لم يعهد التاريخ انقلابا سريعا ، تاما شاملا ، فى الاعتقادات، والأخلاق، والعادات، وشؤون الاجتماع، كهذا الانقلاب، فى أىّ أمة، على يد أىّ مُصلح ، أو رسول من الرسل ، قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولن يكون بعده .

رجل نشأ يتيما، قليل ذات اليد، أمّيا ، بين أهل وأقارب مشركين ضالين، فى ناحية من الأرض، بعيدة عن كل نظام

وحضارة، نائية عن العلم والعلماء، فَيَشِبّ كارها لما عليه قومه، من ضلالات وأوهام، ويتصف بمكارم الأخلاق، ومحاسن الصفات، حتى اذا بلغ من ذلك الكمال، أعلن مخالفته لقومه، ولما عليه الناس، من معتقدات فاسدة، وأخلاق شائنة، وعادات سيئة، وهو وحيد فريد، فينجح فى دعوته، وينقذ أمة، كانت غارقة فى بحار الضلال والهمجية، ويوجه قلوبها، الى إله واحد، هو الله تعالى، فاطر الأرض والسموات، بعد أن كان لكل قبيلة، إله تَصْنَعُه وتُعَظِّمُه، وأوجد فيها النظام بعد الفَوْضَى، والاتحاد بعد التفرّق، والتناصر بعد التخاذل، وتصير بعد ذلك مُصلحة الأمم، وسيدة العالم، أفيكون كل هذا بقوة فرد غير مؤيد من الله تعالى؟ أللهم إنَّ كل ذلك، لا يكون إلا بتأييد وتوفيق من لَدُنْك.

رجل أراد بدعوته، أن يرد الناس جميعا، مِلِّيين وغير مِلِّيين، الى فطرتهم، وهى توحيد الله تعالى، وتزيهه عن أن يكون له شريك، أو ولد، أو والد، أو صاحبة، وشرع لهم أحكاما فى عبادتهم، وشؤون حياتهم، هى أكمل شريعة جاء بها رسول قبله، وأسند كل ذلك اليه تعالى، وقال إنه مُبلِّغ عنه، فما كذَّبه، وما خَذَله، ولا خيَّبه،

وهو عز وجل الذى يقول : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ ، بل كان يزيده فى دعوته نجاحا ، ويزيد من أتبعه ، صلاحا وفلاحا ، حتى أتم دعوته ، وبلَّغ رسالته ، وقال عن ربه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ أفلا يكون هـذا صادقا ، وما جاء به حق ؟ بلى ، وربى إنه لصادق ، وإن دينه لهو الدين الحق .

عموم رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

تمهيـــــــد

ببيان حال العرب وغيرهم قبل الرسالة

إن العرب ، كانوا قبـل الرسالة المحمدية ، قبـائل متعادية ، همُّ كل قبيلة ، أن تُغير على أختها ، تقتل رجالها ، وتسلُب أموالها ، وكانت لا تَخْبُو نار حرب بين قبيلتين ، حتى تشتعل بين غيرهما ، هذا

الى ضلالهم فى اعتقادهم ، وتسلط الأوهام والخرافات على نفوسهم ، وبلوغهم من تَضَعْضُع الأخلاق ، وسوء العادات ، حدّا قتلوا فيه أولادهم ، خشية الفقر ، وَوَأَدُوا بناتهم ، تخلصا من عار حياتهن ، ولم تكن حالُ الأمم غير العرب ، خيرا من هذه الحال ، فقد عمّت الوثنية أطراف الأرض ، فعُبِدَ غير الله ، من الكواكب ، والنيران ، وغيرها ، ودَبَّ الفساد الى عقائد المتدينين ، فنسبوا اليه تعالى ما لا يليق بألوهيته ، وكمال ربوبيته ، وحرّفوا وبدّلوا فى كتبهم ، وحرّموا وحلّلوا ، بأهوائهم ، وحَظَرَ رؤساء الدين ، على من سواهم ، النظر فى نص من نصوصه ، وتَفَهُّم الغرض منه ، فعطّلوا العقل ، وأطفؤا نور الفكر ، وساد الجَور والاستبداد ، واستحل القوى ثمرة عمل الضعيف ، وانغمس المترفون فى لذّاتهم ، وبرّح بالفقراء فقرهم ، وشقاؤهم ، واستبيحت الحُرمات ، واقتُرفت المنكرات ، وامّحت أعلام الحق ، وانطمس نوره ، وضل الناس سبل صلاحهم ، وفلاحهم ، فى دنياهم وآخرتهم .

رسالة محمد عامة، لأن الحاجة الى الاصلاح عامة

فكان من رحمة الله، ولطفه بعباده، أن أرسل اليهم رسولا منهم، يردّهم عن غَوايتهم، ويُنير لهم طريق فوزهم وسعادتهم، واختار لرسالته، محمدا صلى الله عليه وسلم، وشرّفه بتبليغ خلقه ما شاء أن يكلفهم إياه، وجعل رسالته الى الناس عامة، لأن حاجتهم الى الاصلاح كانت عامة.

قام بهذه الدعوة العظمى وحده، لا حول له ولا قوة، والناس أحباء ما أَلِفُوا، وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة، أعداء ما جَهِلوا، وإن كان رَغَد العيش، وعزة السيادة، ومنتهى السعادة، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم، وعبيد شهواتهم، لا يَفْقَهون دعوته، ولا يعقلون رسالته، عُقِدت أهداب بصائر العامة منهم، بأهواء الخاصة، وحُجِبَتْ عقول الخاصة، بغرور العزة، عن النظر فى دعوى ضعيف أُمِّى مثله، لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم، والتطاول باللوم والتعنيف الى مقاماتهم الرفيعة.

لكنه فى أميته وضعفه، كان يُقَارعهم بالحجة، ويناضِلهم بالدليل، ويأخذهم بالنصيحة، ويزعجهم بالزجر، وينبههم للعِبَر، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه، عادل فى أمره ونهيه، أو أَبٌ حكيم فى تربية أبنائه، شديد الحرص على مصالحهم، رءوف بهم فى شدته، رحيم فى سلطته، حتى هداهم الله بهديه، وأعزهم بإرشاده.

ماهذه القوة فى ذلك الضعف، ما هذا السلطان فى مَظِنَّة العجز، ماهذا العلم فى تلك الأمية، ماهذا الرشاد فى غَمَرات الجاهلية. إن هو إلا خطاب الله القادر، الذى وسع كل شيء رحمة وعلما. ذلك أمر الله الصادع، يَقْرَع الآذان، ويشق الحُجُب، ويَنْفُذ الى القلوب، على لسان من اختاره لِيَنْطق به، واختصه بذلك، وهو ضعيف فى قومه، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا بعيدا عن الظِّنَّة، بريئا من التُّهَمَة.

أىّ برهان على النبوة أعظم من هذا، أُمّىّ قام يدعو الكاتبين الى فهم ما يكتبون، وما يقرءون، بعيد عن مدارس العلم، صاح بالعلماء لِيُمحِّصوا ما كانوا يعلمون. غريب فى أقرب الشعوب الى

سذاجة الطبيعة، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر فى سننه البديعة، أخذ يقرر للعالم أجمع أصـول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا، لن يَهْلِك سالكها، ولن يخلُص تاركها .

ما هـذا الخطاب المفحم ما ذلك الدليل الملجم . إن هو إلا وَحْىٌ يُوحَى ، الى نبىّ صدّق الأنبياء، وأيّد الرسل قبله ، ولم يأت فى الاقناع برسالته، بما يُلْهِى الأبصار، أو يُحيِّر الحواس، أو يُدْهش المشـاعر، بل طالب كل قوة بالعـمل فيما أعدّت له ، واختص العقل بالخطاب، وجعل فى قوة الكلام، وسلطان البلاغة، وصحة الدليل ، مبلغَ الحجة، وآيةَ الحق ، الذى لا يأتيـه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد .

معجزة محمد تفوق المعجزات

ولهـذا أيده بمعجزة فاقت كل معجزات الرسـل قبله ، ذلك أن المعجزات التى أيد الله بهـا الرسـل السابقين ، كانت كلها حوادث كونية، تنتهى بوقوعها، أو بموت الرسـول المؤيّد بهـا، كانفـلاق البحر لموسى ، وإبراء عيسى بعض الأمراض ، التى

استعصى على الطب علاجها ، أما معجزة محمد ، فهى القرآن الكريم ، وهو تلك المعجزة العقلية العلمية ، الباقية على وجه الدهر ، المنقولة بالتواتر ، على ما نبينه بعد ، المحفوظة من التحريف والتبديل ، بوعد الله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ خاطب القرآن العقول ، وقامت به الحجة ، على صدق رسالة من أُنزل عليه ، ولزم كل عاقل بلغته الدعوة ، تصديقه والايمان بما جاء به .

القرآن حجة فى حياة الرسول وبعد وفاته

وكما قامت بالقرآن الحجة فى حياة الرسول ، فأسلم مشركو العرب وكثير من أهل الكتاب ، كذلك قام به الدليل ، على استمرار شريعته بعد وفاته ، فأسلم من لا يُحصَى من الفُرس ، وغيرهم ، من الأمم ، على أيدى أصحابه ، ومَن بعدهم من المسلمين ، ولا يزال كتاب الله معجزة ناطقة بصدق رسالة محمد ، ودليلا ناهضا ، على بقاء شريعته ، ويجب على كل من بلغته الدعوة الى هذا الدين ، على وجه يَلْفِت النظر ، ويحرّك الفكر ، أن يؤمن به ، ويعمل بدينه ، من أىّ أمة من الأمم ، فى أىّ عصر من العصور .

نص القرآن على عموم رسالة محمد

وقد نص القرآن الكريم على عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . وقال تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ . وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ .

فمحمد صلى الله عليه وسلم ، مرسل الى جميع الناس ، عربهم وعجمهم ، وشريعته باقية قائمة ببقاء معجزته ، وقيامُها دليل على صدق رسالته .

معجزته عقلية علمية باقية

وهو خاتم النبيين ، وشريعته ناسخة لما قبلها

علم مما سبق أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم الى الناس عامة ، لا الى العرب خاصة ، وأن معجزته ليست حادثة كونية ، وقتية ،

وإنما هى معجزة عقلية علمية، باقية دائمة، وهذا لما سبق فى علمه تعالى أن محمدا خاتم النبيين، وأن شريعته آخر الشرائع، وأنها ناسخة لكل شريعة قبلها .

لم يُرسل رسول الى الناس جميعا قبل محمد

أرسل الله تعالى رسلا كثيرين، قال فيهم : ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فكان كل رسول يدعو قومه، الذين أرسل فيهم، الى توحيد الله تعالى، وعبادته، ويعلّمهم من الأحكام، مايناسب حالهم، كما أُرسل موسى وهارون، الى المصريين وبنى إسرائيل، ولم يثبت بدليل عقلى، ولا منقول، أن رسولا ادّعى أنه أُرسل الى الخلق جميعا .

لم يَأت رسول بمثل ما أَتَى به محمد

لم يأت رسول بشريعة، مشتملة على ما يهذب النفس، ويطهر الرُّوح، مبيحة لذائذ الحياة وطيباتها، فى حدود التوسط والاعتدال، وافية بمصالح الناس جميعا، على اختلاف أحوالهم،

وعادتهم، فى كل زمان وأىِّ مكان، فلما أراد الله تعالى أن يختم النبوّات، ويجمع العالم على دين واحد[١]، أدّب محمدا، فأحسن تأديبه، وجمَّله بأكمل الصفات، وأرسله الى الناس كافة، وأنزل عليه كتابا، أعجزهم الإتيان بأقصر سورة منه، وأودعه شريعة هى أكمل الشرائع، وأوفاها بما يصلح الناس فى دنياهم، ويَكْفُل لهم الفوز بالنعيم الدائم فى آخرتهم .

ما يكون به هداية الناس وإصلاحهم

إن هداية الناس وإصلاحهم، إصلاحا تاما، إنما يكونان بتوجيه قلوبهم الى الله تعالى، وتطهير عقائدهم، من أدران الشرك، وأوهام الوثنية، ورفع منزلتهم عن أن يعبدوا غيره جل وعلا، كائنا

---

(١) يقول العارفون وفى مقدّمتهم علماء الإفرنج الباحثون فى الأديان إن الاسلام ينتشر بين الناس بكيفية تستوقف النظر، قال إسحاق طيلر (قسيس انكليزى منصف) إن الاسلام ينتشر الآن فى إفريقية بسرعة لا يأتى عليها الوصف وإننا لنرى الاسلام أوفق ما يكون لتهذيب الأمم المتوحشة وترقيتها وقد نفع المدنية أكثر مما نفعتها المسيحية اهـ . وإنه لا ينتشر بين القبائل المتوحشة فقط بل هو ينتشر أيضا بين الأمم الراقية فقد أسلم كثير من الانجليز وغيرهم، ومن هذا قال بعض الباحثين إن المستقبل للاسلام، وقال بعضهم إن الاسلام هو الدين الذى جاء لجمع الناس كلهم على مبدأ واحد .

من كان من خلقه، و إطلاق أفكارهم فى التأمل، فى ملكوت السموات والأرض، ليستدلوا ببديع الصُّنع، ووحدة النظام، على وحدة الصانع وعظمته، و يصلوا بجِدهم الى أقصى حدّ فى الانتفاع بما سُخِّر لهم، مما خلق الله تعالى.

ويكونان بحثهم على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات، وتنفيرهم من مساوئها، وبأن تباح لهم طيبات الحياة، وتُحَرَّم عليهم خبائثها، مما يضر بالنفس أو العِرض أو المال، و بأن تُشرع لهم عبادات تهذب طباعهم، وتزكى أرواحهم، وأن تُسن أحكام عامة، تَكْفُل لهم الأمن والطمأنينة.

كل ما به الاصلاح والهداية ثابت فى الشريعة المحمدية

كل هـذا قد جاءت به الشريعة المطهرة، وتضمن أصـوله القرآن الكريم، والسنّة النبوية، فشريعة محمد أتم الشرائع، وأوفاها بحاجة الانسان، فى معاشه ومعاده.

شريعة محمد جديرة بأن تكون آخر الشرائع
وهو حقيق بأن يكون خاتم النبيين

لا جرم كانت آخر الشرائع ، وسنّة الترقى تنتهى بالكمال ، وكانت ناسخة لكل شريعة قبلها ، وكان صاحبها خاتم النبيين ، وآخر المرسلين .

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ . ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

الوحى

معنى الوحى لغة

أصل معنى الوحى، الاشارة السريعة، ثم أُطلق على الاعلام بالشيء فى خفاء وسرعة ، ويراد بالسرعة ، أن تلقى المعلومات فى النفس دَفعة، بدون مقدّمات وتفكر، وقد استعمل الوحى، بمعنى الإلهام قال تعالى : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ .

وحى الله الى أنبيائه

ووحى الله الى أنبيائه، عبارة عما يُلقيه فى نفوسهم، من العلوم التى يريد جل وعلا، أن يُبَلِّغوها الناس، لهدايتهم ، وإصلاحهم فى دنياهم، وإسعادهم فى آخرتهم ، ويكون النبى بعد الوحى اليه، على ثقة تامة بأنه من الله تعالى .

لا يمكن معرفة حقيقة الوحى

وليس فى الامكان ، أن نَقِفَكَ على حقيقة الوحى، ونصل بك الى سره، فان هذا شيء لا يَعرِف كنهه من الناس، إلا من شرفه الله به، من أنبيائه، ولكنا نقول : إن الله تعالى يصطفى من خلقه، أفرادا يُقَوِّى أرواحهم، ويطهر قلوبهم، ويصفِّى نفوسهم، ويبرئهم من مساوئ الأخلاق، وذميم العادات، ولا يجعل لشواغل الدنيا وزخارفها، سلطانا عليهم، فإذا أراد عز وجل أن يلقى، الى واحد منهم ما يُبلِّغه عبادَه، وجه قلبه اليه، فانصرف عن عَالَم المادة، واتصل روحه القوِىُّ، بعَالَم الغيب، فيتلقى عنه تعالى، ما أراد من المعارف، التى لا يمكن أن ينالها الناس بكسبهم، وهم فى أشدّ الحاجة اليها، لتطهير نفوسهم، وإصلاح أحوالهم .

الرؤيا الصالحة من الوحى

والرؤيا الصالحة للأنبياء من الوحى، وقد وقع ذلك لإبراهيم عليه السلام، فقد رأى فى المنام، أنه يذْبَح ٱبنه اسماعيل، فلما ٱسْتَيقظ

علم أنه مأمور بذلك، ولما هَمّ بتنفيذ أمره تعالى، أكرمه ورحمه، ورحم ابنه بالفداء، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾.

وكانت الرؤيا الصالحة أول وحى نبينا صلوات الله وسلامه عليه، فقد ورد فى الحديث المشهور، أن أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى، الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا، إلا جاءت مثل فَلَقِ الصبح.

أنــواع الــوحى

والوحى أنواع وردت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ فهذه الآية الشريفة تدل على أن طرق إعلام الله ما يشاء لأنبيائه، ثلاثة أنواع :

النــوع الأول

الإعلام بلا واسطة، وذلك أن يُلهَم النبي بقوته الروحانية الفائقة التي فُطِرَ عليها، ما يريد الله أن يُبلِّغه الناس، وهذا الالهام، يحصل في رُوح النبي دَفعة واحدة، ولا يكون الرُّوح معلقا بشيء يَشْغله؛ لتجتمع الهمة، ويتم الانسلاخ عن العالم المادّى، والاتصال بالعالم الروحاني .

النــوع الثاني

هو ما يظهر فيه للنبي شيء، تتوجه اليه روحه تمام التوجه، وتنقطع عن الشواغل الكونية، فيكون هذا الشيء حجابا بين عالم الشهادة، وعالم الغيب، فيسمع الوحي من وراء هذا الحجاب .

ومن ذلك، النار التي رآها موسى عليه السلام، فطار اليها لُبُّه؛ وتعلق بها قلبه، وانحصرت فيها همته، فكان منها رسالته، قال تعالى :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ .

النــــوع الثالث

هو التلقى عن الله ، بواسطة الملك ، المسمى ، بالرُّوح الأمين وهو المعبر عنه فى الآية السابقة ، بقوله تعالى : ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ . والمعبر عنه فى قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُبِينٍ ﴾ .

فهذا النوع هو خطاب الرُّوح الملكى ، للرُّوح الانسانى ، لما يكون بينهما من الاتصال ، بأمر الله تعالى ، وذلك ، أن رُوح الرسول أقوى الأرواح الانسانية ، وأطهرها ، فتكون على استعداد ، لأن تتصل بعالم الأرواح ، إذا أراد الله تعالى ، أن يُعْلم النبى ، ما فيه خير لعباده ، وصلاح خلقه .

وجود ما هو ألطف من المادة غير مستحيل

أما وجود بعض الأرواح العالية، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية، ممن يختارهم الله لرسالته، فغير مستحيل، بعد ما أثبت العلم قديمه وحديثه، أن الوجود مشتمل على ما هو ألطف من المادة، وإن كان مغيبا عنا، فلا مانع من أن يكون هذا الوجود اللطيف مَشرقا، لشيء من العلم الالهى، وأن يكون للأنبياء إشراف عليه، فاذا جاء النبي، وأخبر الناس بأن الملك أوحى اليه عن الله شيئا، وأُيِّد بالمعجزة، وجب عليهم تصديق ذلك، والاذعان لما جاء به.

التعريف بالقرآن الكريم

القرآن الكريم ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ، ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أوحاه الله الى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، بلسان عربي مبين: ﴿لِيُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَيُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ خاطب فيه القلوب بالموعظة، والعقول بالدليل، ولَفَتَ النظرَ الى ما فى الكون من آيات وعِبَر، فانطلقت به الأفكار من قيودها، وتحرّكت بعد

خمودها وجمودها ، فاستبان الحق ، ووَضح النَّهْج ، وقامت الحجة ، وانزاحت الشبهة .

التحــدّى به

نزل القرآن على محمد ، النبي العربى الأمى ، الذى لم يَتَلَقَّ عن أستاذ ، ولم يجلس الى فيلسوف ، ولم يَتْلُ من قبله كتابا ، ولم يَخُطَّ بيمينه حرفا .

(نزل) تأييدا لدعوته ، وشاهدا بصــدق رسالته ، فتحدّى به العرب أجمعين ، ولم يخص بذلك طائفــة دون طائفة ، ولا قَبيلا دون قَبيل ، وقد كانوا أرباب الفصاحة ، وفِرسان البلاغة ، النـثر أنفَس بضائعهم ، والشعر أربح تجارتهم ، كان فيهم الخطباء المَصَاقع والشعراء المُفْلِقون ، يعْقِدون للقول المجامع ، ويقيمون الأسواق ، فيباهون به ويفاخرون ، ويناضلون ويتصاولون ، وكانوا ذوى أنفة وعزة واستكبار ، يأبون الضيم ، وينفِرون من الصَّـغار ، وكانوا يَحرِصون كل الحرص ، على التغلب عليه صلى الله عليه وسلم ، وإبطال دعواه ، ومع ذلك ، دعاهم بأمر الله تعالى ، فى آيات من القرآن ، الى المعارضة ، وأغراهم بالمُنَاهضة ، فقال تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ

إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ . وقال تعالى : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . ولقد كان لهم أن يجمعوا من البلغاء والفصحاء من شاءوا ، «كما كانوا يجتمعون للمباهاة والمباراة بالقول» ، فيأتوا بشيء من مثل ما أتى به ، ليُبْطِلوا حجته ، وليَبْرَءُوا بأنفسهم من عار الغَلَب ، ويصونوا دماءهم ، التى سفكها عنادهم واستكبارهم .

عجز العرب عن معارضته

لم يجترءوا على شيء من ذلك ، ولم يُقْدِموا عليه ، مع طول زمن التحدّى ، وإمعانهم فى التكذيب والتعدّى ، وإذ عجز العرب عن المعارضة ، كان غيرهم أشدّ عجزا ، لهذا سجّله الله على الانس والجن جميعا ، بقوله تعالى : ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ حكم شامل ، قاطع دائم ، لا يمكن أن يَصدُر من انسان لا علم له بما يتجدّد من القُوَى على طول الزمان ، وانما هو حكم الله الواهب القُوَى ، المطلع على ما كان وما سيكون ، العالم بأن القرآن الكريم ،

خارج عن طوق البشر، معجز كل من رام معارضته ، أو أراد مناهضته، وإذن لا يكون القرآن من كلام انسان، بل هو تنزيل من حكيم حميد .

ما تضمنه القرآن

تضمن القرآن الكريم ، توجيه النظر وطلب التفكر فيما خلق الله في السموات والأرض، لنستدل به على وجوده تعالى وقدرته ، وسائر ما آتصف به ، من صفات الجلال والجمال ، في مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾. وقص علينا من أخبار الأمم الماضية، ما فيه عبرة لنا ، وبين أن ما أصابهم من الاضمحلال والهلاك ، كان جزاء إعراضهم عما شرع لهم، وفسوقهم عن أمر ربهم، وعدم شكرهم ما أنعم به عليهم : ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ

فِي الْأَرْضِ مَالَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ونَعَى على علماء الأديان السالفة، تحريفهم كتبهم، بتأويلها على غير وجهها، ونسيانهم حظا مما ذُكِّروا به، وإدخالهم فى دينهم ما ليس منه، وتحريمهم وتحليلهم بحسب أهوائهم وشهواتهم، فى آيات كثيرة من الكتاب، قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ ٱللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ وحوى من الأحكام الكلية الصالحة لكل زمان وكل أمة، ما يكفُل السعادة الدنيوية والأخروية، اذا فُهم على وجهه، وأُدِّى حق تأديته، وحث على الأخلاق الفاضلة، من الصبر والصدق، والأمانة والعدل، وحسن المعاملة، ورعاية الجوار، والاعتصام بحبل الاتحاد، والوفاء بالعهد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، الى غير ذلك مما ينهض بالأمم، ويَرْقَى بها الى أعلى درجات العز

والسيادة، هذا الى إخباره بأمور غيبية، جاءت من بعدُ على ما أخبر بها، من ذلك قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ﴾. ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وقد كان كل ذلك، والى إشارته الى أمور كونية، وأسرار إلهية، كشفها البحث، وأثبتها العلم، فى نحو قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾. ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾. ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وصف للقرآن

وهو فى ذلك كله، كما وصفه أحد البلغا : إن أَوْجز كان كافيا، وإن أكثر كان مُذَكِّرا، وإن أمر فناصحا، وإن نهى فمشفقا، وإن حكم فعادلا، وإن أخبر فصادقا، وإن بيَّن فشافيا، لا يَمَلُّه قارئُه، ولا يَمُجُّه سامعه، يزيد على الترديد حلاوة، وعلى التكرار طلاوة، وغيره يعادى إذا أعيد، ويُمَلُّ مع التكرار والترديد، ذلك هو القرآن الكريم، المنزل

على محمد صلى الله عليه وسلم، آخرِ الأنبياء، وخاتِمِ المرسلين، المكتوبُ في السطور، المحفوظُ في الصدور، من بدء نزوله الى ما شاء الله أن يكون، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

كيف نزل القرآن

نزول القرآن مُنَجَّمًا وسبب ذلك

اقتضت حكمة الله تعالى، اللطيف الخبير، أَلَّا ينزل القرآن جملة واحدة، لتستعد القوى الانسانية، لتلقى هذا الفيض الإلهى، وتقوى على وَعْيه وفهمه، ولتتيسر كتابته وحفظه، لهذا نزل منجما مفرقا، فكانت آيات الأحكام وغيرها، تنزل بحسب الوقائع، والحوادث، ومقتضيات الأحوال، وكان ذلك أحكم فى التشريع، وأبلغ فى التأييد، وأشدّ فى التعجيز .

مدّة نزوله وأوّل ما نزل وآخره

نزل القرآن فى خلال ثلاث وعشرين سنة، وكان أَوّلَه نزولا : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ وآخرَه نزولا : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا ﴾ نزلت فى حجة الوداع والناس وقوف بعرفة، ورسول الله رافع يده الى السماء، والمسلمون متوجهون الى الله تعالى بالدعاء، وكان بين نزولها ووفاته صلى الله عليه وسلم إحدى وثمانون ليلة .

عدّة سوره والمكىّ والمدنى منه

وعدّة سوره ١١٤ أربعَ عشْرةَ ومائةُ سورة، نزل منها بمكة قبل الهجرة ست وثمانون سورة ، وتسمى السوَرَ المكية، والباقى بعد الهجرة، وتسمى المدنية، وأكثرها من السور الطِّوال .

كانت تنزل منه الآية والآيتان، وما هو أكثر من ذلك، وقد تنزل السورة بتمامها، إذا لم تكن طويلة، ومن هذا فاتحة الكتاب، وسورة الاخلاص .

أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بحفظ ما ينزل

كان كلما نزلت آية أو سورة ، وسُرِّىَ عنه صلى الله عليه وسلم ، يُبلِّغُها أصحابَه ، ويستحفظهم إياها ، فيحفظونها ، من فَورهم ، ويعتنون بذلك أتم اعتناء ، ثم يتلونها أمامه ، ويستثبتون من حفظها ، وَفْقَ ما سمعوا منه صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك من أعظم القُرَبِ عندهم ، وكانوا يعلِّمونها من لم يشهد النزول من اخوانهم ، وبهذا حفِظ القرآنَ الكثيرُ من الصحابة ، رضوان الله عليهم .

نزول القرآن على سبعة أحرف

فى هذا المعنى وردت أحاديث عدّة ، من طُرُق عدّة ، أقتصر منها على ما رواه البخارى [1] ، عن عمر [2] بن الخطاب رضى الله عنه ، قال :

(١) أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن المغيرة البخارى شهرته بين المسلمين تغنى عن ترجمته ولد ببخارى يوم الجمعة ثالث عشر شوّال سنة ١٩٤ وتوفى ليلة السبت أوّل شوّال سنة ٢٥٦

(٢) عمر بن الخطاب بن نفيل ينتهى نسبه الى عدى بن كعب بن لؤى ولد قبل البعثة بثلاثين سنة وتوفى فى ذى الحجة سنة ٢٣ وهو الخليفة الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أوّل من لقب بأمير المؤمنين وآثار عمر فى الاسلام كثيرة شهيرة .

«سمعت هِشَام[1] بن حَكِيم يقرأ سورة الفرقان فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستمعت لقراءته ، فاذا هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يُقرئنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكدت أُسَاوِرُه فى الصلاة ، فتصبَّرتُ حتى سلَّم ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِداءه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ ، قال : أَقْرَأَنِيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : كذبت ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أَقْرَأَنِيها على غير ما قرأتَ ، فانطلقت به ، أقُودُه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : إنى سمعت هذا ، يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تُقْرِئْنِيهَا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَرْسِلْه ، إقرأ ياهشام ، فقرأ عليه القراءة التى سمعته يقرأ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ ياعمر ، فقرأت القراءة التى أقرأنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن ، أُنزل على سبعة أحرف ، فاقرءوا ما تيسر منه اه .

---

(١) هشام بن حكيم بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى بأجنادين (بلدة من بلاد الرملة من فلسطين) فى جمادى الأولى سنة ١٣ فى خلافة أبى بكر .

ولعل الأحرف التي اختلف فيها عمر وهشام، هى التى أوردها ابن حجر[1]، فى آخر شرح هذا الحديث، من البخارى .

قد اختلفت أفهام العلماء فى المراد من الأحرف السبعة، الواردة فى الحديث، اختلافا لم أره فى حديث غيره، حتى أوصل ابن حبان[2]، اختلاف آراء العلماء فى المراد من هذه الأحرف السبعة ، الى خمسة وثلاثين رأيا ، ولكن أكثرها غير سـديد ، وغير مختار للمحققين ، من العلمـاء .

وأمثلها آراء ثلاثة ، سأختار منهـا واحدا ، دون أخـويه ، مبطلا كل واحد منهما ، مؤيدا ما اخترته بالدليل الواضح ، معتمدا فى ذلك، على ما يُعطيه سياق الحديث، وعلى ما حققه أئمة الدين، وحاملو لوائه .

---

(١) هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد الشافعى ولد بمصر سنة ٧٧٣ ونشأ بها وكان شيخ مشايخ الاسلام فى عصره وتولى القضاء بمصر مدّة تربو على عشرين سنة وألف المؤلفات الكثيرة الجيدة وتوفى بالقاهرة بعد صلاة العشاء من ليلة السبت ثامن عشر ذى الحجة سنة ٨٥٢

(٢) هو أبو حاتم محمـد بن حبان البستى كان عالما بالطب والنجوم والفقـه والكلام ومن كبار علماء الحديث توفى سنة ٣٥٤

وقبل الدخول فى بيان هذه الآراء الثلاثة، وتأييد المختار منها، بالحجة الدامغة، والدليل القاطع، أُبيِّن معنى الحرف فى لغة العرب، وأىُّ معنى من معانيه، يفسَّر به الحرف، فى الحديث الشريف .

يطلق الحرف على طَرَف كل شىء، تقول حرف الجبل، أى طَرفه، ومن هذا المعنى، سميت حروف الهجاء حروفا، لأنها تقع أطرافا للكلمات التى تركب منها .

وسميت حروف المعانى حروفا أيضا لأنها تربط معانى الأفعال بالأسماء والأسماء بالأسماء كالطرفين يربط أحدهما بالآخر .

ومنه أيضا اطلاق الحرف على الوجه أى الطريقة، فى قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ أى وجه، لأن من يشكر إن حصل على خير، ويضجر ويسخط إن أصابه شر، يكون فى طرف من الايمان، غير متأصل فيه، وليس لقلبه منه حظ يذكر.

ويطلق أيضا، على اللغة والقراءة، وما لها من كيفيات وصفات، ومميزات تمتاز بها، يقولون هذا فى حرف ابن مسعود (١)، أى فى قراءته، الموصوفة بصفاتها الخاصة .

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن مخزوم الهذلى أسلم بمكة قديما وهاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها وتوفى فى خلافة عثمان سنة ٣٢ للهجرة .

وهذا المعنى، هو المناسب لأن يُحمل عليه، قوله صلى الله عليه وسلم، أنزل القرآن على سبعة أحرف .

فالحرف من تلك الأحرف ، هو الكيفيات والهيئات ، والصفات ، التى يجب على القارئ ، أن ينطق بكلمات القرآن وجمله ، على وَفْقِها، ووجهها، المروىّ عن النبي صلى الله عليه وسلم، فى قراءته ذلك الحرف .

وإذ قد تبين معنى الحرف ، الذى يناسب أن يحمل الحديث عليه، فلنبين الآراء الثلاثة، واحدا بعد واحد، مبطلين غير المختار، حتى نصل الى المختار منها، ناصع الحجة، واضح البرهان، ان شاء الله تعالى .

فأولها، أن معنى قوله صلى الله عليه وسلم ، أُنزل القرآن على سبعة أحرف، هو سبعة معان، زجر وأمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال .

واحتج صاحب هذا الرأى، لما ذهب اليه، بما روى عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : كان الكتاب الأول

(كالتــوراة مثلا) نزل من باب واحد ، وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب، وعلى سبعة أحرف، زجر وأمر، وحلال وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال، فأحِلُّوا حلاله، وحَرِّموا حرامه، وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهُوا عما نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به، كل من عند ربنا اه .

وهذا الرأى غير صحيح .

لأن الحديث الذى استدل به لم تثبت صحته عند علماء الحديث، فإن راويه عن ابن مسعود، لم يلق ابن مسعود، وعلى فرض صحة هذا الحديث الذى استدل به، فان فيه ذكرا لسبعة أبواب، ولسبعة أحرف، وهـذا يدل على أن الأحرف السبعة، غير الأبواب السبعة، وما ورد فى باقى الحديث، إنما هو بيان للأبواب السبعة، لا للأحرف السبعة، ويؤيد هذا أنه جاء فى بعض طرق هذا الحديث، زاجرا، وآمرا بالنصب، أى نزل على هذه الصفة من الأبواب السبعة .

ولأن الصحابة الذين اختلفوا فى القراءة، قد خالف بعضهم بعضا، فى نفس التلاوة، دون ما فى ذلك من المعانى، وأنهـم

إنما احتكموا الى النبي صلى الله عليه وسلم، فى نفس التلاوة، فاستقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كل واحد منهم، ثم صوب جميعهم، فى قراءتهم، على اختلافها، وقال: إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف، ومعلوم أن تماريهم، فيما تمارَوْا فيه، لو كان تماريا واختلافا، فيما دلت عليـه تلاواتهم، من التحليل والتحريم، والوعد والوعيد، وما أشبه ذلك، لكان مستحيلا، أن يُصَوِّبَ النبي قراءة جميعهم، ويأمر كل قارئ أن يلزم قراءته، لأن ذلك، لوجاز أن يكون صحيحا، وجب أن يكون الله جل ثناؤه، قد أمر بفعل شيء بعينه، وفرضه على عباده، فى قراءة من دلت قراءته على فرضه، ونهى فى الوقت عينه عباده، عن فعل ذلك الشيء بعينه وزجر عنه، فى تلاوة من دلت تلاوته على النهى والزجر عنـه، وأباح ذلك الشيء بعينه، وجعل لمن شاء من عباده أن يفعله، ولمن شـاء منهم أن يتركه، فى تلاوة من دلت تلاوته على التخيير، وذلك يترتب عليه، إثبات ما قد نفاه الله عن كتابه، إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾، وفى نفى الله ذلك عن كتابه، دليل

واضح، على أنه لم ينزل كتابه، على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، إلا بحكم واحد، متفق فى جميع خلقه، لا بأحكام مختلفة فيهم .

قال ابن شهاب[1] : ان تلك الأحرف السبعة، انما هى فى الأمر الذى يكون واحدا، لا يختلف فى حلال، ولا حرام .

ولو كان تصويب النبى صلى الله عليه وسلم لمَّا سمع تلاوة المحتكمين اليه ، تصويبا لما اختلفت فيه تلاواتهم، من المعانى ، وكان قوله صلى الله عليه وسلم : أنزل القرآن على سبعة أحرف، إعلاما منه لهم، أنه نزل بسبعة أوجه مختلفة، وسبعة معان مفترقة، لكان ذلك، إثباتا لما قد نفى الله عن كتابه، من الاختلاف، ونفيا لما أوجب له ، من الاحكام والائتلاف ، والحجة قائمة على عكس ذلك .

---

(١) ابن شهاب هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى نسبة لبنى زهرة قوم آمنة أم النبى صلى الله عليه وسلم وهو من التابعين اتفق العلماء على إتقانه و إمامته توفى بالشام فى رمضان سنة ١٢٤ هـ وعمره اثنتان وسبعون سنة .

وفى تفسير الطبرى[1] بسنده عن عبد الله ابن مسعود قال : من قرأ القرآن على حرف، فلا يتحوّلن عنه الى غيره . فمعلوم أن عبد الله لم يَعْنِ بقوله هـذا ، من قرأ ما فى القرآن ، من الأمر والنهى ، فلا يتحوّلن عنـه ، الى قراءة ما فيه ، من الوعد والوعيد ، ومن قرأ ما فيـه ، من الوعد والوعيد ، فلا يتحوّلن عنه ، الى قراءة ما فيه ، من القصص والأمثال ، وإنما عَنَى رحمة الله عليـه ، أن من قرأ بحرفه ، وحرفه قراءته ، (وكذلك تقول العرب ، لقراءة رجل حرف) فلا يتحوّلن عنه الى غيره ، رغبة عنه ، ومن قرأ بحرف أبىّ[2] ، أو بحرف زيد[3] ، أو بحرف من قرأ من أصحاب رسول الله صلى الله

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبرى كان اماما فى فنون كثيرة منها التفسير والحديث وكان من الأئمة المجتهدين ولد بآمُل طبرستان سـنة ٢٢٤ وتوفى ببغداد فى شوّال سنة ٣١٠

(٢) أبو المنذر أبىّ بن كعب بن المنـذر بن كعب الأنصارى من بنى النجار كان من كتّاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى خلافة عثمان سنة ٣٠

(٣) أبو سعيد زيد بن ثابت بن الضحاك من كتّاب الوحى لرسول الله صلى الله عليـه وسلم كانت سـنه لما قدم النبى المدينـة احدى عشرة سـنة وتوفى بالمدينـة سـنة ٤٥

عليه وسلم ، ببعض الأحرف السبعة، فلا يتحوّلن عنه الى غيره ، رغبة عنه، فان الكفر ببعضه، كفر بجميعه، والكفر بحرف من ذلك ، كفر بجميعه ، يعنى بالحرف ، قراءة بعض من قرأ ، ببعض الأحرف السبعة .

وما يقول صاحب هذا الرأى فيما روى أن سعيد بن جُبَير[1]، كان يقرأ القرآن على حرفين، وان مجاهدا[2] كان يقرؤه على خمسة أحرف ، أيظن صاحب هذا الرأى ، أن ابن جبير ، ما كان يعلم من معانى القرآن، إلا الأمر والنهى مثلا، وأن مجاهدا، ما كان يعلم إلا خمسة معان، مع أن المسلمين متفقون، على أنهما من أعلم الناس بآى القرآن، وأعلاهم منزلة، من الكتاب الكريم .

فلم يبق شك، فى بطلان هذا الرأى، وعدم صحة حمل الحديث الشريف عليه .

(١) أبو عبدالله سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الكوفى أحد أعلام التابعين أخذ عن ابن عباس وابن عمر قتله الحجاج فى شعبان سنة ٩٥ للهجرة .

(٢) أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكى تلميذ ابن عباس مات سنة ١٠٣ هـ . ومولده سنة ٢١ هـ فى خلافة عمر .

(ثانيها) أن المراد بالأحرف السبعة، فى الحديث الشريف، إنما هو القراءات السبع، المعروفة الآن بين الحفاظ، المجموعة فى مثل منظومة الشاطبي[(١)].

وهـذا باطل أيضا، لأن اختلاف القراءات ما شاع إلا بعد انتشار مصاحف عثمان فى الأمصار، وأول من جعلها سبعا ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كما سيأتى:

قال ابن أبى هاشم[(٢)] إن السبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها، أن الجهات التى وُجهت اليها المصاحف، كان بها من الصحابة، من أخذ القرآن عنه أهل تلك الجهة، وكانت المصاحف، خالية من النَّقْط والشَّكْل، فثبت أهل كل ناحية، على ما كانوا تلقوْه سماعا، من أصحاب رسول الله، بشرط موافقة خط المصحف، وتركوا كل ما يخالف الخط، امتثالا لأمر عثمان، الذى وافقه عليه الصحابة، لِمَا رأَوْا فى ذلك من الاحتياط للقرآن.

---

(١) أبو محمد القاسم بن فِيرُّه بن خلف بن أحمد الرعينى الشاطبي المولود بشاطبة فى آخر سنة ٥٣٨ المتوفى بالقاهرة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة سنة ٥٩٠.

(٢) هو عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبى هاشم البغدادى البزاز الامام النحوى الثقة توفى فى شوّال سنة ٣٤٩ هـ. وقد جاز السبعين.

فمن ثَمَّ نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار، مع كونهم متمسكين بحرف واحد من السبعة (وهو الذى كانت عليه العرضة الأخيرة، التى عرض فيها النبي وجبريل، عليهما الصلاة والسلام القرآن فى السنة التى تُوُفِّيَ فيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهى التى جَمع على وَفْقِها المصاحف، عثمان رضى الله عنه وأقره عليها الصحابة)".

وقال مكى بن أبى طالب[1] هذه القراءات التى يُقْرَأُ بها اليوم، وصحت روايتها عن الأئمة، جزء من الأحرف السبعة، التى نزل بها القرآن، ومن ظن أن قراءة هؤلاء السبعة، كنافع[2] وعاصم[3]، هى الأحرف السبعة التى فى الحديث، فقد غلط غلطا عظيما.

على أنه قد ثبت عن الأئمة الثقات، قراءات متواترة غير السبع، فلو قلنا أن القراءات السبع، هى الأحرف السبعة، الواردة

(١) أبو محمد مكى بن أبى طالب حموش القيسى المقرى ولد بالقيروان فى شعبان سنة ٣٥٥ وتوفى بقرطبة فى المحرم سنة ٤٣٧

(٢) نافع بن عبد الرحمن الشجعى المقرى المدنى يكنى أبا رويم قرأ على أبى ميمونة مولى أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه مالك بن انس توفى بالمدينة سنة ١٦٩ للهجرة.

(٣) أبو بكر عاصم بن أبى النجود مولى بنى جذيمة بن مالك بن نصر توفى بالكوفة سنة ١٢٧

فى الحديث ، لزم أن تكون هـذه القراءات المتواترة ، الزائدة عن السبع ، الموافقة لخط مصحف عثمان ، غير قرآن ، وهو غلط عظيم .

وقال ابن حجر فى شرح البخارى قد صنف ابن جُبَير[1] المكى فى القراءات ، فاقتصر على خمس قراءات ، اختار من كل مصر إماما ، وإنما اقتصر على ذلك ، لأن المصاحف التى أرسلها عثمان ، الى هذه الأمصار كانت خمسة (مكة . المدينة . الشام . البصرة . الكوفة) ويقال انه وجه بسبعة ، هذه الخمسة . ومصحف الى اليمن ، ومصحف الى البحرين اهـ وقال تقى الدين ابن تَيمِيَّة[2] ، فى فتاواه ، أن أول من جمع قراءات هؤلاء السبعة ، الامام أبو بكر بن مجاهد[3] ، فانه أحب أن يجمع المشهور من قراءة الحرمين ، والعراقين ، والشام ، إذ هذه

---

(١) هو عبد الله بن جبير الهاشمى المكى من علماء القرن الثالث لأنه تلميذ محمد ابن عبد الرحمن المعروف بقنبل وقنبل هذا ولد سنة ١٩٥ وتوفى سنة ٢٩١

(٢) تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمِيَّة بتشديد الياء نسبة شاذة الى تيماء الحرَّانى المولود بحرَّان سنة ٦٦١ المتوفى سنة ٧٢٨

(٣) أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمى الحافظ يكنى أبا بكر بن مجاهد البغدادى ولد سنة ٢٤٥ وتوفى فى شعبان سنة ٣٢٤

الأمصار الخمسة، هى التى خرج منها عِلْم النبوّة، من القرآن والتفسير والحديث، والفقه، وسائر العلوم الدينية، فأراد جمع قراءات سبعة من مشاهير أئمة قراء هذه الأمصار، ليكون ذلك موافقا لعدد الحروف التى أُنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده أو اعتقاد غيره من العلماء، أن القراءات السبع، هى الحروف السبعة، أو أن هؤلاء السبعة، المعينين، هم الذين لا يجوز أن يُقرأ بغير قراءتهم اه .

وقال ابن حجر وقد ظن من لم تكن له فطنة، ممن لم يعرف أصل المسئلة، أن القراءات السبع، هى الأحرف السبعة، وساعده على ظنه هذا، استعمالهم الحرف كثيرا، فى موضع القراءة، كقولهم قرأ بحرف نافع و بحرف ابن كثير(١)، وليس الأمر كما ظن اه .

ولوقوع هذا الظن، قال ابن عمار(٢) لقد فعل مُسبِّع القراءات، ما لا ينبغى له، وأشكل الأمرَ على العامة، بايهامه ان هذه القراءات

(١) هو عبد الله بن كثير بن عمرو بن عبد الله بن زادان بن فيروزان بن هرمز أبو جعفر المكى الدارى الامام المجمع على قراءته بمكة توفى سنة ١٢٠

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عمار المهدوى التميمى مؤلف كتاب الهداية وشرحها فى القراءات . توفى بعد سنة ٤٣٠

السبع ، هى الأحرف السبعة ، الواردة فى الخبر ، وليته نقص عن السبعة أو زاد .

بكل ما تقدّم ، يتضح أن حمل الحروف السبعة ، على القراءات السبع ، حمل باطل ، وغير صحيح .

(ثالثها) وهو المختار أن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف ، اشتماله على سبعة أوجه يقرأ القارئ بأى وجه منها ، على البدل من صاحبه ، فأيها سمع القارئ من النبي صلى الله عليه وسلم ، قرأ به ، فقد وُسِّع للنبي صلى الله عليه وسلم ، أن يقرئ كل جماعة بالحرف أى اللغة التى مَرِنت عليها ألسنتهم ، فالهُذَلِيُّ يقرئه عتى حين ، بدل حتى حين والأَسَدِيُّ نِعلمون بكسر التاء ، بدل تعلمون بفتح التاء ، ولو أراد كل فريق أن يزول عن لغته ، وما جرى عليه لسانه طفلا وناشئا وكهلا ، لشق عليه ذلك غاية المشقة ، فأبيح للنبي صلى الله عليه وسلم أن يُقرِئَهم بلغاتهم ، تيسيرا من الله على خلقه ، وتحقيقا لما اتصف به صلى الله عليه وسلم من الرأفة بأمته ، والشفقة عليهم ، يدل لذلك ما روى عن أبىّ[1] بن كعب أن جبريل لقى النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) أبىّ بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصارى من بنى النجار يكنى أبا المنذر من كتّاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أوّل من كتب فى آخر المكاتبات =

وهو عند أَضَاةِ[(١)] بنى غِفَار، فقال : إِن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقال : أسأل الله مغفرتَه ومعافاتَه، سل الله لهم التخفيف، فانهم لا يُطيقون ذلك، فانطلق ثم رجع فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله مغفرته ومعافاته، سل الله لهم التخفيف، فانهم لا يُطيقون ذلك، فانطلق ثم رجع ،فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف، فقال : أسأل الله مغفرته ومعافاته ، سل الله لهم التخفيف ، فانهم لا يُطيقون ذلك ، فانطلق ثم رجع ، فقال : إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على سبعة أحرف، فمن قرأ منها بحرف فهو كما قرأ اهـ .

= (وكتب فلان بن فلان) كان عمر بن الخطاب يسأله فى النوازل ويتحاكم اليه فى المعضلات وكان يسميه سيد المسلمين وسيد القراء مات سنة ثلاثين فى خلافة عثمان على ما حققه ثقات المؤرّخين .

(١) أضاة بنى غفار الاضاة بفتح الهمزة و بالضاد المعجمة وألف لينة وبعدها تاء تأنيث مستنقع الماء كالغدير وجمعه أضا كعصا و إضاء كإناء وهو موضع بالمدينة النبوية نزل عنده بنو غفار فنسب اليهم وغفار على وزن كتاب .

وكان سبب الانتهاء عند السبعة ، أن الكلمة لا يقع فيها اختلاف في اللغة ، أكثر من سبعة أوجه غالبا ، وليس المراد أن كل كلمة في القرآن تقرأ على سبعة أوجه ، بل المراد أن الكلمة لا يزيد الاختلاف في أوجه النطق بها ، عن سبعة أوجه في لغة العرب ، على أن ما يقرأ من كلمات القرآن على سبعة أوجه ، نادر جدا ، حتى أدت نُدرته ، الى إنكار ابن قتيبة[1] وجود شيء من ذلك في القرآن ، وردّ عليه بمثل قوله تعالى ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ وقوله ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ ففيهما أوجه كثيرة ، ومثلهما من النادر في القرآن الكريم .

والإذْن للنبي صلى الله عليه وسلم ، في أن يقرئ أمته القرآن على سبعة أحرف ، كان بعد الهجرة ، وأما قبل الهجرة فكان القرآن لا يقرأ إلا بلغة قريش ، فلما كثر دخول العرب في الاسلام بعد الهجرة ، أُذِنَ له أن يقرئهم بغير لسان قريش ، لأن العربي المجبول على لغته ، المفطور عليها ، من طفولته الى شيخوخته ، إذا كُلِّف القراءة بلسان قريش ، عَسُر عليه التحول عما ألف من لغته .

(١) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي صاحب التصانيف الكثيرة المفيدة ولد ببغداد أو بالكوفة سنة ٢١٣ هـ . وتوفي في منتصف رجب سنة ٢٧٦ هـ .

وليس من المعقول ، أن يكلفهم النبي صلى الله عليه وسلم ، النطق بلغته «لغة قريش» وهم لا يحسنون النطق بها ، فكان من الحكمة الالهية ، التيسير عليهم ، وتأليف قلوبهم ، خصوصا وإن الدعوة الى الاسلام كانت دعوة سلمية أساسها الأقناع ، وتوجيه الفكر ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، لِيُتَوَصَّل من ذلك ، الى اعتقاد وحدانية الله ، وانفراده بالخلق والتقدير ، فأباح الله لنبيه فى أول الأمر أن يقرئ الناس القرآن على ما ألفوا ، مما لم يغير معنى ، ولم يَخرج من دائرة الفصيح فى العربية .

ولا يفهم من إباحة القراءة على هذه الأحرف ، وإبدال كلمة بمرادفها ، أو إعرابها باعراب لا يناقض معنى القرآن ، أن للقارئ أن يأتى بكلمة من لغته ، ترادف كلمة من لسان قريش ، بمحض اختياره وإرادته ، فذلك لا يقع بالاختيار والتَّشَهِّى ، بل لا بد فى ذلك من السماع من النبي صلى الله عليه وسلم ، أو السماع ممن سمع منه ، كما يدل على ذلك ، قول كل من عمر وهشام ، فى الحديث السابق ، أقرأنى النبي صلى الله عليه وسلم .

واذ قد عُلِمَ أن القراءة لا تحصل بالرغبة ولا بالتَّشَهِّى فيجوز لمن سمع من النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من قراءة أن يقرأ القرآن بأيها شاء فكلاهما قرآن، وانكار إحداهما ردّه .

هل الأحرف السبعة من جميع لغات العرب أو من بعضها ؟

اتفق القائلون بأن المراد بالأحرف السبعة أوجه سبعة ، على اشتراط أن تكون من لغات فصحاء العرب ، ثم اختلفوا بأَىِّ لغات العرب نزل القرآن الكريم؟ فروى عن ابن عباس رضى الله(١) عنهما أنه قال : نزل القرآن على سبع لغات ، منها خمس فى العَجُزِ من هَوازِن، وهم سعد بن بكر، وجُشَم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف، (ولعل فى أحد هذه البطون لغتين) ولغة قريش، ولغة

(١) عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى لله عليه وسلم يلقب ترجمان القرآن ولد فى شعب أبى طالب قبل الهجرة بثلاث سنين وتوفى بالطائف سنة ثمان وستين .

خُزَاعة، وسئل ابن عباس عن خزاعة، فقال لقربهم من قريش فى الدار والموطن .

وعَجُزُ هَوَازِن ، يقال لهم أيضا عُلْيَا هوازن ، قال أبو عمرو بن العلاء [١] : أفصح العرب عُلْيَا هوازن وقال أبو حاتم السِّجِسْتَانى [٢] : نزل القرآن بلغة قريش، وهُذَيل، وتَيم الرِّبَاب، والأَزْد، ورَبِيعة، وهَوَازِن، وسَعد بن بكر .

وقيل نزل بلغة مضر خاصة، لقول عمر رضى الله عنه : نزل القرآن بلغة مضر، واللغات السبع من مضر، فى هذه البطون . هُذَيل، وكِنَانة، وقَيْس، وضَبَّة، وتَيم الرِّبَاب، وأَسَد بن خُزَيمَة، وقريش .

---

(١) قيل اسمه زبان بن العلاء بن عمار بن عبد الله بن الحصين المازنى ولد بمكة سنة ٦٥ فى خلافة عبد الملك بن مروان قال أبو عبيد ما رأيت قبله ولا بعده فى فهمه وعلمه وهو أحد الأئمة فى القراءة وكان قدوة الناس فى العلم باللغة وأيام العرب توفى بالكوفة سنة ١٥٤ وقال صاحب القاموس زبان على وزن شداد لقب أبى عمر ابن العلا .

(٢) هو سهل بن محمد بن عثمان من ساكنى البصرة كان إماما فى علوم القرآن واللغة والشعر توفى سنة ٢٥٥ وقد قاربته سنة التسعين .

وأكثر العلماء على أن الحروف السبعة، لغاتٌ سبع لقريش لا تختلف ولا تتنافى، بل هى متفقة المعنى، متحدة المدلول، كقول القائل: هلم، وأقبل، وتعال. قالوا وغير جائز أن يكون فى القرآن لغة لا تعرفها قريش، وذلك أن قريشا، أهل البيت الحرام، وأحياء العرب تأتى اليهم كل عام للحج، فيستمعون لغاتهم، ويختارون من كل لغة أحسنها، وأخفها على اللسان والسمع، فصفا بذلك كلامهم، واجتمع لهم مع ذلك، العلم بلغة غيرهم.

وهذا هو الذى تميل اليه النفس، ويرتاح اليه الفؤاد، وهو المشاهد الى الآن، فى كل مصر تَرِدُ اليه الأمم المختلفة الألسنة، المتباينة اللغات، فانك تجد الكثيرين، من أهل هذا المصر، يفقهون لغات من يَرِدُ عليهم، ويحسنون النطق بها، وكثيرا ما تندمج ألفاظ من هذه اللغات، فى لغة أهل المصر، وتكون من لغتهم، فوجود ألفاظ فى القرآن، من غير لغة قريش، لا يخرج القرآن عن كونه بلغة قريش، إذ كانت قريش تعرف هذه اللغات، لمكانهم من البيت، المقصود من جميع العرب.

كتابة القرآن على عهده صلى الله عليه وسلم

كان عليه الصلاة والسلام، يأمر كتّاب الوحى، بكتابة ما ينزل وقت نزوله، ومن هؤلاء زيد بن ثابت (١) وعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان (٢) وعبد الله بن مسعود (٣) وأنس بن مالك (٤) وأبيّ بن كعب

---

(١) زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد الأنصارى من بنى النجار علم من أعلام الصحابة كأبيّ بن كعب ومن كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم مات سنة ٤٥ ولما مات قال أبو هريرة مات خير هـذه الأمة وعسى الله أن يجعل فى ابن عباس منه خلفا .

(٢) عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أميـة القرشى الأموى صهر رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم وثالث الخلفاء الراشدين ولد بعد عام الفيل بست سنين وتوفى فى ذى الحجة سنة ٣٥

(٣) عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن الهذلى حليف بنى زهرة أحد السابقين الى الاسلام هاجر الهجرتين هجرة الحبشة وهجرة المدينة وشهد غزوة بدر وما بعدها مات بالمدينة سـنة ٣٠ وقيل ٣٢ فى خلافة عثمان ولما مات قال أبو الدرداء ما ترك ابن مسعود مثله .

(٤) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصارى من بنى النجار خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخر الصحابة موتا توفى سنة ٩٣

ومعاوية[١] بن أبى سفيان وكثير غيرهم رضى الله عنهم فكانوا يكتبون ما يمليه عليهم فى الرقاع وعلى عُسُبِ النخل[٢] واللّخاف .

ترتيب آى القرآن توقيفى أى بأمر رسول الله

قد أجمع المسلمون ، على أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يُوَقِّفُ أصحابه عند الكتابة ، أو الحفظ ، على ترتيب آيات السور ، ويعلّمهم مواضعها ، من السورة ، وكان يقرأ السور الطوال ، وغيرها ، فى الصلوات ، وخارج الصلوات ، فيسمعونه ، وكانوا يقرءون أمامه ، على ما رَتَّبَ وعَلَّمَ ، وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرض القرآن على جبريل ، مرتين فى السنة الأخيرة من حياته الشريفة ، على الترتيب الذى نعرفه الى اليوم ، وقرأه عليه الحفاظ من أصحابه ، على هذا الترتيب أيضا ، فلم ينتقل رسول الله الى الرفيق

(١) معاوية بن أبى سفيان صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكاتب وحيه وأول خلفاء الدولة الأموية توفى فى رجب سنة ٦٠

(٢) الرقاع الجلود وغيرها وعسب النخل ما عرض من جريدها واللخاف حجارة بيضاء رقيقة .

الأعلى، حتى كان القرآن كله مكتوبا، يحفظه بترتيبه هذا، العدد الكثير من أصحابه، ولكنه لم يكن مكتوبا فى صحف مرتبة .

سبب عدم كتابة القرآن فى المصحف على عهده عليه السلام

تقدم أن القرآن كان يحفظه العدد الكثير من الصحابة، وأنه كان مكتوبا فى الرقاع، وغيرها فى حياته، صلى الله عليه وسلم، لكنه كان غير مجموع فى مصحف واحد، حتى لحق صلى الله عليه وسلم، بالرفيق الأعلى .

ولم يأمر صلى الله عليه وسلم، كتّابه بكتابة القرآن فى مصحف واحد، لما كان يتوقعه، من نزول آيات بعد كتابته، فلما كانت خلافة أبى بكر الصديق[1] جمع القرآن فى صحف .

---

(١) هو عبد الله بن عثمان بن عمر القرشى التيمى من تيم بن مرة صديق رسول الله وأول من أسلم من الرجال ووالد أم المؤمنين عائشة وصاحب المنة الكبرى على المسلمين بحرب أهل الردة ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر وهو أول الخلفاء الراشدين توفى فى جمادى الأولى سنة ١٣

جَمْع القرآن وتدوينه على عهد أبى بكر

اشارة عمر على أبى بكر بجمع القرآن وسبب ذلك

دخل عمر على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، بعد سنتين من ولايته ، فقال له : إن أصحاب رسول الله ، يتهافتون على القتال ، تهافت الفَراش على النار ، وإنى أخشى ألّا يشهدوا موطنا ، إلّا فعلوا ذلك ، حتى يقتلوا وهم حَمَلَة القرآن ، فيضيع وينسى ، فلو جمعته ! فنفر أبو بكر وقال : أفعل مالم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتراجعا فى ذلك ، ثم أرسل أبو بكر الى زيد بن ثابت (من كتّاب الوحى ومن الحفاظ المتقنين) فعرض عليه قول عمر ، وقال له : إن تُوَافِقْ عمر على ما رأى أتبعكما ، وعمر ساكت ، فنفر زيد ، كما نفر أبو بكر قَبله وقال : نفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : وما عليكما لو فعلتما ، إنه والله خير ، وما زال بهما ، حتى وافقاه .

جمع أبي بكر للحفظة المتقنين ليجمعوا القرآن

فجمع أبو بكر الحفظة المشهود لهم بالاتقان، وكان منهم، زيد ابن ثابت، وأبيّ بن كعب، وعلى بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وأخذوا يوالون الاجتماع، وأحضروا كل ما كانوا كتبوه، بإملاء النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أخذوا يقرءون فيقابلون، ويدققون ويحتاطون، وكان أُبَيٌّ يملى وزيد يكتب، حتى وصلوا الى آخر آية، ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ من سورة التوبة، فظنوها آخر ما أُنزل منها، فقال أُبَيٌّ بن كعب: أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم آيتين بعدُ، هما لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ الى آخر السورة، وفيما هم كذلك إذ جاءهم أبو خُزَيْمَة الأنصارى[(١)] فقال: إنى رأيتكم تركتم آيتين فلم تكتبوهما قالوا: وما هما، قال: تلقيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ الى آخر السورة قال زيد: لم أجدهما مكتوبتين عند أحد ممن تَلَقَّى

---

(١) مشهور بكنيته ولا يعرف اسمه وهو ابن أوس بن اصرم بن زيد بن ثعلبة ابن غنم الأنصارى ذكره ابن اسحاق فيمن شهد بدرا .

من النبي صلى الله عليه وسلم، من غير واسطة، إلا عند أبي خُزَيْمَةَ، فلما تلاهما أبو خزيمة عليهم، قال عثمان وزيد وعمر وأبيّ ونحن نشهد أنا سمعناهما، من النبي صلى الله عليه وسلم، ووعيناهما فبتلاوة أبي خزيمة الأنصارى، وأبيّ بن كعب تذكروهما .

وكان زيد لا يكتفى بالحفظ عند الحافظ، دون أن يكون ماحفظه مكتوبا عنده، ومع ذلك كان لا يكتب ما هو كذلك حتى يَشْهَدَ الشُّهُودُ بسماعه من النبي صلى الله عليه وسلم، فما أَلحق آخر سورة التوبة لمجرد أن أبا خزيمة كان يحفظه، وكان مكتوبا عنده، بل بعد أن شهد هؤلاء العدول، بسماعهم ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم، ووَعْيِهِم إياه .

وكان زَيد يفعل ذلك، مبالغة منه، فى الاحتياط للقرآن الكريم .

بهذا تعلم رد افتراء من افترى، وقال : إن فى القرآن، ما ثبت بخبر الواحد، وكأنه فهم أن قولهم خبر الوحد، معناه خبر الشخص الواحد، وليس كذلك .

بل خبر الواحد، يقابل الخبر المتواتر، ولا يلزم من كثرة العدد التواتر، لجواز فقد شرط من شروط التواتر، كما بين ذلك فى فتح البارى ، فالعدول المذكورون الذين شهدوا بسماعهم من النبى صلى الله عليه وسلم ، ما وُجِدَ مكتوبا عند أبى خزيمة، خير من ألوف يشهدون بذلك .

على أنه لما كتبت المصاحف فى خلافة عثمان ، بمحضر من جمهور الصحابة ، كُتِبَ فيها آخر سورة التوبة ، وأقره الصحابة، وكانوا فى غاية الحرص على كتاب الله، لايقبلون فيه شيأ، لم يقطعوا بسماعه من النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يخشون فى ذلك أميرا ولا كبيرا ، فلو لم يكن آخر سورة التوبة ، متواترا عندهم، ما قبلوا كَتْبَه فى مصاحف عثمان، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ .

تَمَّ كَتْبُ القرآن، آياته، وسوره، على الترتيب والضبط، اللذين تَلَقَّوْهُمَا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى الصحف، ولم تزل هذه الصحف، عند أبى بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حَفْصَة بنته، أم المؤمنين .

المصحف الإمام أو مصحف عثمان

إشارة بعض الصحابة على عثمان بكتابة المصاحف

ان الصحف التى كُتِبَتْ على عهد أبى بكر، وكانت بعده عند عمر، ثم كانت بعد عمر عند أم المؤمنين حَفْصَة ٱبنته، لم تكن مصحفا واحدا يقرؤه الناس و يتداولونه، فلما كانت خلافة عثمان، قدم حُذَيْفَةُ(١) بن اليَمَانِ من غزوة كان غزاها، فى فُرَجِ إرْمِينِيَة، فلم يدخل بيته حتى دخل على عثمان بن عفان، فقال يا أمير المؤمنين أَدْرِكِ الناسَ، قال عثمان : وما ذاك، قال : غزوت فُرَجَ إرْمِينِيَة، فحضر أهل الشام وأهل العراق، فإذا أهل الشام يقرءون القرآن، بقراءة أُبىّ بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرءون القرآن، بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم

(١) حذيفة بن اليمان حسيل بن جابر بن ربيعة بن فروة العبسى صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد بيعة على بأربعين يوما سنة ٣٦ للهجرة .

يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضا، فأجمع الناس على قراءة، وقد حصل لعثمان نفسه، شيء من هــذا، قبل ذلك، فان بعض المعلمين، كان يعلم الغلمان الحرف الذى عُلِّم، والمعلم الآخر يعلّم بحرف آخر قد عُلِّمَــه، فكان الغلمان يختلفون فى قراءتهم، وكاد المعلمون، يكفر بعضهم بعضا، فخطب عثمان فقــال : أنتم عندى تختلفون، فمن نَأَى عنِّى من الأمصار، أشدّ آختلافا، فكان إخبار حذيفة بما رأى، محققا لمــا كان توقعه، من آختلاف أهل الأمصار فى التلاوة، فصحت لذلك عزيمة عثمان، على كتابة القرآن فى مصحف .

كُتَّابُ المصحف على عهد عثمان

فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله[1] بن الزبير، وعبــد[2] الرحمن بن الحارث، بكتابة المصحف، وقال لزيد (وهو أحد الجامعين للقرآن على عهد أبى بكر) إنى مُدْخِلٌ معك رجلا لبيبا فصيحا، فما اجتمعتما عليه

(١) عبد الله بن الزبير بن العوام القرشى الأســدى الصحابى ابن الصحابى ولد فى السنة الثانية من الهجرة وهو أول مولود ولد فى المدينة من المهاجرين وتوفى سنة ٧٣

(٢) عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى توفى سنة ٤٣

فاكتباه، وما اختلفتما فيه فارفعاه إلىّ، فجعل معه سعيد[(١)] بن العاص فلما بلغوا قوله تعالى : ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ قال زيد (التابوه) وقال سعيد (التابوت) فرفعا الأمر الى عثمان، فقال : انها (التابوت) فكُتِب (التابوت) فكتبوا المصحف، واستعرضوه عَرْضَةً بعد أخرى، فلما لم يجدوا شيئا، أرسل عثمان الى أم المؤمنين حَفْصَة، يسألها أن ترسل اليه الصحف، لعَرْض المصحف عليها، وحلف لها، لَيردّنها اليها، بعد مقابلة المصحف بها، فأعطته إياها، فعرض عليها المصحف، فلم يختلفا فى شىء، فردّها اليها، وطابت نفسه بما فعل، وأمر الناس أن يكتبوا مصاحف، فلما ماتت حفصة[(٢)] أرسل عثمان الى عبد الله[(٣)] بن عمر يطلب الصحف منه، وشدّد فى طلبها، فأعطاه عبد الله إياها، فغسلها غسلا .

---

(١) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية الأموى ولى الكوفة لعلى وتوفى سنة ٥٧

(٢) حفصة أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم توفيت فى خلافة عثمان .

(٣) عبد الله بن عمر بن الخطاب الصحابى الكبير توفى فى ذى الحجة سنة ٧٣

والسر فى غسل هذه الصحف أنها كانت مفردة، كل صفحة منفصلة عن الأخرى، فلما عرض مصحفه عليها وتحقق من مطابقتهما، وكان ذلك بمحضر جمهور من الصحابة، خشى اذا هو تركها أن يصل اليها أحد أعداء الاسلام، فيغير ويبدل فيها، وذلك يَسْهُل جدا، لأنها كانت بخط لا يصعب تقليده فلو بَدَّل فيها عدو الاسلام صفحة، وجاء وقال هذه صحف أبى بكر تخالف مصحفكم، متذرّعا بذلك الى الطعن، متخذا هذه الصحف سلاحا، لحصل شر عظيم، فمنعا لذلك، غسل عثمان هذه الصحف غسلا، فرضى الله عن عثمان وجازاه على ما فعل خير الجزاء.

إرسال عثمان المصاحف الى الأمصار

ولما تم لعثمان كَتْبُ المصحف، أمر بنسخ مصاحف، فكانت خمسة، أبقى واحدا منها بالمدينة، وأرسل واحدا الى مكة، وواحدا الى الشام، وواحدا الى الكوفة، وواحدا الى البصرة.

وأمر الناس، أن لا يقرءوا القرآن إلا على وَفْقِ الحرف المكتوبة عليه هذه المصاحف، إذ هو الموافق للعرضة الأخيرة، التى عرضها

النبي صلى الله عليه وسلم ، فى سَنَةِ وفاته مع جبريل ، وغَسْلَ ماسواى مصاحفه ، فكان ذلك منه رأفة بالمسلمين ، أن يختلفوا فى تلاواتهم .

وتتابع المسلمون على كتابة مصاحفهم ، على ما رَسَم عثمان ، واشتهر ما كُتُبَ من المصاحف بأمر عثمان ، بالمصحف الإمَام ، (وهو المعروف فى كلامنا الآن بالمصحف العثمانى ، نسبة الى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه) .

الفرق بين سبب جمع أبى بكر وسبب جمع عثمان

إن جمع أبى بكر القرآن ، كان لخشية أن يذهب من القرآن شىء ، بذهاب حُفَّاظِه ، وحَمَلَتِه ، لأنه لم يكن مجموعا فى موضع واحد ، بجمعه فى صحائف ، مرتبا لآياته على ما وَقَّفَهُم عليه النبي صلى الله عليه وسلم .

وأما جمع عثمان للقرآن ، فكان سببه ، كثرة الاختلاف فى وجوه القراءة ، حين أُبِيح للنبي صلى الله عليه وسلم ، (لرفع المشقة) أن يقرئهم القرآن بعد الهجرة ، بلغاتهم ، واللغات متسعة ، فأدّى ذلك

بعضهم، الى تخطئة بعض، نخشى من تفاقم الأمر فى ذلك، فنسخ تلك الصحف فى مصحف واحد، مرتبا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش، محتجا بأنه نزل بلغتهم، وأن قراءته بلغة غيرهم كانت لرفع الحرج والمشقة، فى ابتداء الأمر، قبل العرضة الأخيرة، ورأى أن الحاجة الى ذلك انتهت، فاقتصر على لغة واحدة وكانت لغة قريش أرجح اللغات، وهى لسان النبي صلى الله عليه وسلم، فاقتصر عليها .

كتابة المصاحف غير مشكولة ولا منقوطة وسر ذلك

كان المصحف، الذى كُتِبَ بأمر عثمان، غير مشكول ولا منقوط، وذلك لتيسير قراءته، على الأوجه[1] التى صح سماعها من رسول

(١) من هذه الأوجه اختلاف حركات الاعراب فى قوله تعالى (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) فقد قرئ بالنصب والجرّ ومنها اختلاف حرف المضارعة فى نحو قوله تعالى (وما ربك بغافل عما تعملون) قرئ بالتاء وبالياء، ومنها اختلاف الكلمة بين أن تكون حرفا واسما فى نحو (فناداها من تحتها) قرئ بكسر الميم على أنها حرف جرّ وبفتحها على أنها اسم موصول وتبع ذلك جر الظرف (تحت) على الأول ونصبه على الثانى وكل هذه القراءات ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فلو كتب مصحف عثمان مشكولا منقوطا لثبتت به قراءة واحدة فقط وذلك ضيق وحرج .

الله صلى الله عليه وسلم ، وهى القراءات التى نسمعها من القرّاء الآن فهى توافق رسم المصحف العثمانى ، وقد صح إسنادها كلها الى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يتعارض معنى القرآن عليها ، وقرأ بها الصحابة والتابعون ومَنْ بعدهم ، واشتهرت كل قراءة عن راو من الرواة المشهورين بصدق الرواية و إتقانها وأخذها عنه الخلق الكثير.

شكل أواخر الكلمات فى المصحف وسبب ذلك

لكن لما دخل غير العرب فى الاسلام ، من الفُرْس وغيرهم ، ونشأ اللحن على الألسنة ، خيف على القرآن أن يُلْحَنَ فى قراءته ، فطلب زياد بن أبيه (١) وكان أمير العراق الى أبى الأسود الدُّؤَلى (٢) وهو من كبار التابعين المتقنين للقراءة ، أن يضع للناس علامات ، تضبط قراءتهم ، فشكل أواخر الكلمات من المصحف الشريف ، وجعل الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة تحته ، والضمة نقطة الى جانبه ،

---

(١) زياد بن أبيه ولد عام الهجرة وأسلم فى خلافة أبى بكر وولى العراق لمعاوية وكان يقال له أوّلا زياد بن عبيد فلما استلحقه معاوية قيل له زياد ابن أبيه توفى بالكوفة سنة ٥٣ هجرية .

(٢) ظالم بن عمرو بن سفيان أبو الأسود الدؤلى قاضى البصرة توفى سنة ٦٩

وجعل علامة الحرف المنون نقطتين، ثم انتشرت طريقته، وعمل الناس بها . لكنها لم تحفظ الألسنة من الخطأ كل الحفظ، فكان يقع التحريف والتصحيف فى القراءة، فدعا ذلك الى إعجام الحروف، (نَقْطِها) وشَكْل أوائل الكلمات، وأواسطها، وأواخرها .

إعجام الحروف وشكل كل حروف الكلمات

قام بالعمل الأول نصر[١] بن عاصم فوضع النقط أفرادا وأزواجا، بأمر الحجاج[٢] رحمه الله ، وقام بالثانى الخليل[٣] بن أحمد فغير صورة الشكل الذى وضعه أبو الأسود، وجعل الفتحة ألفا مسطوحة، فوق الحرف ، والكسرة ياء تحته، والضمة واوا فى أعلاه ، ووضع علامات للمدّ، والتشديد .

(١) نصر بن عاصم الليثى البصرى النحوى أخذ عنه الزهرى وابن دينار وتوفى سنة ٩٠

(٣) الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق لعبد الملك بن مروان والحجاج هو الذى بنى مدينة واسط بالعراق سنة ٨٦ وتوفى بها فى رمضان سنة ٩٥

(٣) الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى البصرى الامام المشهور توفى سنة ١٧٠

عناية القرّاء بما يُعين على إجادة تلاوة القرآن

ولقد عُنِيَ الحفاظ والقرّاء من بعد ذلك ، بالفصل بين آياته ، وعلامات تبين مواضع الوقف والابتداء فيه ، وأخرى ، تعين على إحكام تلاوته ، وجرت عادتهم ، أن يبيِّنوا فى أوّل كل سورة ، أهى مكية أم مدنية ، ويذكروا عدد آياتها .

عناية المسلمين فى كل عصر بكتابهم

وما زال المسلمون ، من الملوك والأمراء وغيرهم ، فى كل عصر يتنافسون فى تحسين كتابته ، بأنواع الخط[1] المختلفة ، ويتبارَون فى تجويد قراءته ، يتلقاه خلفهم عن سلفهم ، الى العصر الأخير ، الذى ظهرت فيه المطابع ، فطُبع ألوف الألوف من المصاحف ، فى مصر ، والأستانة ، والهند ، وبلاد الفُرس ، وأوروبا ، مع الاتقان والضبط التامين ، وآخر ما كان من ذلك عناية الحكومة المصرية ، بطبع هذا

(١) فى متحف دار الكتب المصرية من ذلك الشيء الجميل الثمين المكتوب فى عصور مختلفة ، الذى يندر وجود مثله فى مملكة غير مصر .

الكتاب الكريم، متحرّية فى طبعه، الرسم الذى كتب به الصحابة، المصحف الامام، بأمر عثمان رضى الله عنه .

تبين مما تقدّم، أن المسلمين قد عُنُوا فى جميع عصورهم، بكتابهم، عناية لم يشهد التاريخ مثلها فى كتاب، وهذا تحقيق لوعد الله تعالى، لنبيه فى قوله ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ . ولأنه كما تقدّم معجزة محمد الخالدة، ولأنه يتضمن شريعة، هى آخر الشرائع الناسخة لكل شريعة قبلها، وحبذا لو عُنِينَا مع ذلك، بفهمه حق الفهم والعمل بكل ما فيه، إذن لأصلح الله أحوالنا، وجعل لنا من أمرنا يُسرا، وفقنا الله تعالى لما فيه سعادتنا، فى الدنيا والآخرة .

الحروف الستة بعد جمع عثمان للمصحف الإمام

قد علم مما سبق، أن القرآن الكريم، جُمِع فى عهد أبى بكر، وعهد عثمان، على حرف واحد، وهو الموافق للعرضة الأخيرة، التى استعرض فيها جبريل مع النبى صلى الله عليه وسلم، القرآن فى رمضان، من العام الذى توفى فيه، فلأجل أن نعرف ماصارت

اليه الأحرف الستة الباقية، يجب أن نعرف أولا ، أن قراءة القارئ للقرآن الكريم ، على حرف من الأحرف السبعة ، لم تكن واجبة ، بل كانت على التخيير، بمعنى أن القارئ، لو سمع من النبي صلى الله عليه وسلم، أو سمع ممن سمع منه ، أكثر من قراءة، بأن سمع الكلمة من القرآن على وجهين مثلا ، جاز له أن يقرأ بأيهما شاء، لا يُلْزَمُ القراءة على وجه معين، فمثلا عمر رضى الله عنه، سمع من هشام ابن حكيم ، بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، سورة الفرقان، وسمع من النبي صلى الله عليه وسلم ، إقرار هشام على ما قرأ ، وقال عن قراءته : كذلك أنزلت، فثبت لعمر أنها قرآن، وأن جحدها كفر، فكان يجوز لعمر، أن يقرأ سورة الفرقان ، كما سمعها من هشام بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يقرأها كما سمعها هو أولا، من النبي صلى الله عليه وسلم، فاقتصاره على قراءة ما كان سمعه هو أولا، لم يكن واجبا، كما أن قراءته، لسورة الفرقان كما سمعها من هشام، لم تكن ممنوعة، ومثل ذلك يقال فى جانب هشام، فقد سمع من عمر سورة الفرقان، بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأقره على ما قرأ، وقال : كذلك أنزلت .

من ذلك كله، نعلم أن قراءة القرآن على حرف من الحروف السبعة ، كانت مباحة ولم تكن واجبة، ولكن بشرط السماع من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد كتب أبو جعفر الطَّبَرى ، فى هذا الموضوع فصلا نلخصه فيما يأتى ، لما فيه من جليل الفائدة ، قال : إن إمام المسلمين ، وأمير المؤمنين ، عثمان بن عفان ، رحمة الله عليه ، جمع المسلمين على قراءة ، نظرا منه اليهم ، و إشفاقا منه عليهم ، ورأفة منه بهم ، حذار الردّة بعد الاسلام ، والدخول فى الكفر بعد الايمان ، إذ ظهر من بعضهم بمحضره ، وفى عصره ، التكذيب ببعض الأحرف السبعة ، التى نزل عليها القرآن ، مع سماع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، النهى عن التكذيب بشىء منها ، و إخباره إياهم ، أن المِرَاءَ فيها كُفْر ، فحملهم رحمة الله تعالى عليه ، إذ رأى ذلك ظاهرا بينهم فى عصره ، وبحداثة عهدهم بنزول القرآن ، وفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم ، فكلفهم بما أمن عليهم معه عظم البلاء فى الدين ، من تلاوة القرآن على حرف واحد ، وجَمَعَهم على مصحف واحد ،

مكتوب على حرف واحد ، وحرّق ما عدا المصحف الذى جمعهم عليه ، وعزم على كل من كان عنده مصحف ، مخالف للمصحف الذى جمعهم عليه ، أن يُحرَّق ، فاستوسقت له الأمة على ذلك بالطاعة ، ورأت أن فيما فعل من ذلك الرشد والهداية ، فتركت القراءة بالأحرف الستة ، التى عزم عليها إمامها العادل فى تركها ، طاعة منها له ، ونظرا منها لأنفسها ، ولمن بعدها ، من سائر أهل ملتها ، لا تجحدا منها لصحتها ، أو صحة شىء منها ، حتى دَرَسَتْ من الأمة معرفتها ، وتَعَفَّت آثارها ، فلا سبيل لأحد اليوم الى القراءة بها ، ولا قراءةَ اليوم للمسلمين إلا بالحرف الواحد ، الذى اختاره لهم إمامهم الشفيق الناصح ، دون ما عداه من الأحرف الستة الباقية .

فإن قال بعض من ضَعُفَتْ معرفته ، : وكيف جاز لهم ترك قراءة أَقْرَأَهُمُوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأَمَرَهم باتباعها . ؟

قيل إن أمره إياهم بذلك ، لم يكن أمر إيجاب وفرض ، وإنما كان أمر إباحة ورخصة ، لأن القراءة بها لو كانت فرضا عليهم ،

لوجب أن تكون القراءة بكل حرف من تلك الأحرف السبعة، معلومة عنـد من تقوم بنقله الحجة، ويقطع خبره العذر، ويزيل الشك من قراءة الأمة، ولنقلوها كلها الى الأمة، ولكن فى تركهم نقل ذلك، كما نقلوا للمسلمين الحرف الذى عليه القراءة الآن، أوضح دليل، على أنهم كانوا فى القراءة بها مخيَّرين، وقد كان فى الأمة إذ ذاك من نَقَلَة القرآن، من تجب بنقله الحجة، لبعض تلك الأحرف الستة، فاذا كان ذلك كذلك، لم يكن القوم بتركهم نقل جمع القراءات (الأحرف) السبع، تاركين ما كان يجب عليهم نقله، بل كان الواجب عليهم من الفعل ما فعلوا، إذ كان الذى فعلوه من ذلك، هو النظرَ، للاسـلام وأهله، فكان القيام بفعل الواجب عليهم، بهـم أولى، من فعل مالو فعلوه، كانوا الى الجنـاية على الاسلام وأهله، أقرب الى السلامة من ذلك.

فأما ما كان من اختلاف القراءة، فى رفع حرف، وجره ونصبه، وتسكين حرف وتحريكه، ونقل حرف الى آخر مع اتفاق الصورة، فبمعزل من معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم، أمرت

أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف ، لأنه معلوم أن الاختلاف المذكور في حرف من حروف القرآن ، لا يوجب المراء به كفر المُمَارِي ، في قول أحد من علماء الأمة ، أما المراء الذي أوجب النبي عليه الصلاة والسلام الكفر به ، فهو من الوجه الذي تنازع فيه المتنازعون اليه ، والاختلاف المتقدّم ، ليس من هذا الوجه .

وكتب أبو جعفر الطبري فصلا آخر ، أراه متمما لما نحن بصدده .

قال أبو جعفر : فإن قال (أي مخالفه) فما بالُ الأحرف الستة غير موجودة ، وقد أقرأهنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمر بالقراءة بهنّ ، وأنزلهنّ الله من عنده ، على نبيه صلى الله عليه وسلم ، أَنُسِخَتْ فَرُفِعَتْ ؟ فما الدلالة على نسخها ورفعها ؟ أم نسيتهنّ الأمة ؟ فذلك تضيع ما قد أُمروا بحفظه ، أم ما القصة في ذلك ؟

قيل له لم تُنسخ فتُرفع ، ولا ضيعتها الأمة وهي مأمورة بحفظها ، ولكن الأمة أُمِرَت بحفظ القرآن ، وخُيِّرت في قراءته وحفظه ، بأيّ تلك الأحرف السبعة شاءت ، كما أُمِرَت إذا هي

حَنِثَت فى يمين، وهى مُوسِرَةٌ، أن تكفّر بأىّ الكفارات الثلاث شاءت، إما بعتق، أو إطعام، أو كسوة، فلو أجمع جميعها، على التكفير بواحدة من الكفارات الثلاث، دون حظرها التكفير بأى الثلاث شاء المكَفِّر، كان المكَفِّر مصيبا حكم الله، مؤديا فى ذلك الواجب عليه، من حق الله تعالى، فكذلك الأمة، أُمرت بحفظ القرآن وقراءته، وخُيِّرت فى قراءته بأىّ الأحرف السبعة شاءت، فرأت لعلة من العلل، وسبب من الأسباب، الثبات على حرف واحد، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية، ولم تَحْظُر قراءتَه بجميع حروفه على قارئه، بما أُذن له فى قراءته به اه.

وقد بيَّنْتُ العلة والسبب الذى حمل المسلمين على قراءته بحرف واحد فى الكلام على جمع المصحف الإمام فَلْيُرجَعْ اليه.

وقال ابن قَيِّم الجَوْزِيَّة (١) فى كتابه الطُّرق الحُكمية.

(١) شمس الدين محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعى الدمشقى الحنبلى المعروف بابن قيم الجوزية ولد سنه ٦٩١ ﻫ كان واسع العلم، عارفا بالخلاف، ومذاهب السلف، وغلب عليه حب ابن تيمية، حتى كان لا يخرج عن شىء من أقواله، وهو الذى هذب كتبه ونشر علمه، وتوفى فى ثالث عشر رجب سنة ٧٥١ ﻫ.

ومن ذلك (أى من طرق الحُكم فى الاسلام) جَمْع عثمان رضى الله عنه الناس على حرف واحد ، من الأحرف السبعة ، التى أطلق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القراءة بها ، لمّا كان ذلك مصلحة ، فلما خاف الصحابة رضى الله عنهم على الأمة ، أن يختلفوا فى القرآن ، ورأوا أن جمعهم على حرف واحد أسلم ، وأبعد من وقوع الاختلاف ، فعلوا ذلك ، ومنعوا الناس من القراءة بغيره ، وهذا كما لو كان للناس عدّة طرق الى البيت (الحرام) وكان سلوكهم فى تلك الطرق ، يُوقعهم فى التفرّق والتشتت ، ويُطمع فيهم العدو ، فرأى الامام جمعهم على طريق واحد ، وتَرْكَ بقية الطرق ، جاز ذلك ، ولم يكن فيه إبطال لها ، لكون تلك الطرق موصلة أيضا الى المقصود ، وان كان فيه (أى الترك) نهى عن سلوكها ، لمصلحة الأمة اهـ .

بيان مُوجَز لما اشتمل عليه القرآن من الأحوال الشخصية والشؤون العمرانية

اشتمل القرآن الكريم ، على كثير من المبادئ والأحكام ، التى تنفع الناس فى أحوالهم الخاصة ، وشؤونهم العامّة ، والتى تَكْفُلُ النظام

بينهم، وتُوجِد رُوح المحبة والمودّة فى قلوبهم، وتؤدّى الى ارتقائهم وسعادتهم، ما تمسكوا بها، ووقفوا عند حدودها، منها ما يتعلق بالبيوت والأُسَر، ومنها ما يتعلق بالمعاملات العامّة بين الناس بعضهم وبعض، ومنها ما يتعلق بالحكّام مع المحكومين .

فمن ذلك :

التسوية بين الرجال والنساء فى الحقوق

(١) سوّى بين الأزواج وزوجاتهم ، وجعل لهنّ مثل الذى عليهنّ من الحقوق ، إلا فيما يقتضيه نظام الجماعات ، من وجود رئيس يُرجَع اليه فى الأمور، ويقوم بحماية أُسْرَتِه ، والدفاع عنها، ويسعى فى كسب ما يَسُدُّ حاجتها، ويُصلح من شؤونها، قال الله تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

إباحة تعدّد الزوجات بشرط العدل

(٢) وأباح تعدّد الزوجات للحاجة اليه ؛ وبخاصة بعد الحروب ، التى يَهْلِك فيها كثير من الرجال ، فيبقى بعض النساء

بلا كفيل ولا عائل ، وحاط إباحته ، بما يدفع ضرره ، من اشتراط العدل بين الزوجات ، فان خاف الرجل أن يظلم إحداهنّ ، وجب عليه الاقتصار على واحدة . واللائق بشريعة هى آخر الشرائع ، أن تبيح ما تمس الحاجة اليه ، مع حياطته بما يمنع ضرره ، قال الله تعالى فى ذلك : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَامَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ .

وقد شعر كثير من غير المسلمين ، بفائدة التعدّد ، حتى وصفوه علاجا لبعض أدوائهم الاجتماعية ، لكن كثيرا من المسلمين ، لم يراع شرط الله تعالى فيه ، فكان منه شر عظيم ، والواجب الضرب على أيدى هؤلاء ، فلا يتزوّجوا بأكثر من واحدة .

شُرِعَ الطلاق للتيسير

(٣) وقد شرع الطلاق ، لكى لا يكون الزواج غُلًّا فى الأعناق ، إذا لم يتفق الزوجان فى الطباع والأخلاق ، قال تعالى : ﴿ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ ولكنه مع ذلك أرشد

الى التحكيم بين الزوجين ، حتى لا تنقطع رابطة الزوجية المتينة ، لأوهى الأسباب ، فقد قال تعالى فى ذلك : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾ .

فإباحة الطلاق فى الاسلام من التيسير ، اذا اتُّبِعَ فيه ما أمر به الله تعالى ، وقد وَدَّ كثير من غير المسلمين لو شُرِعَ عندهم .

احترام الوالدين وغيرهما

(٤) وقد وَصَّى باحترام الوالدين والاحسان اليهما ، والعطف على ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، ورعاية حقوق الجار ، فى قوله تعالى : ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَى وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُوراً﴾ .

نظام التوريث

(٥) وجعل للتوريث نظاما عادلا ، روعى فيه قرب القرابة وبعدها وضعفها ، وجعل للذكر ضعف الأنثى ، إذا تساويا فى القرابة ، لِمَا يجب على الرجل من الإنفاق على نفسه وزوجته وأولاده وتربيتهم ، وفى توريث الأولاد ، يقول الله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ . فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ .

الوصية باليتامى

(٦) وقد وَصَّى باليتامى ، وأمر بالمحافظة على أموالهم ، وإصلاحها واستثمارها ، الى أن يبلغوا سنّ الرُّشْد ، لئلا تَسُوءَ تربيتهم ، ويَشِبُّوا مفسدين ، عيالا على غيرهم ، فقال تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ وقال تعالى : ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ .

الحجر على السفهاء

(٧) ونهى المسلمين عن أن يُطْلِقوا أيدى السفهاء، فى الأموال التى هى قوام الأمم، يبعثرونها، ولا يحسنون التصرف فيها، وجعل أموالهم للأمة جميعها، فاذا بذّر السفيه ماله، وأعطاه أهل الفساد، فكأنما بذّر مال الأمة، خصوصا اذا تسرّب الى أيد أجنبية، لذلك يجب رفع أمره الى الحكام، ليحجروا عليه، ويُعطوه منه بقدر حاجته، وفى هذا يقول تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾.

الحث على الاقتصاد

(٨) وحث على التوسط والاعتدال فى الإنفاق، ونهى عن التقتير والتبذير، فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾.

النهى عن أكل أموال الناس بغير حق

(٩) ونهى عن أكل أموال الناس بغير حق ، لِمَا فى ذلك من الإخلال بنظام المعاملات، ولِمَا يترتب عليه من الخصومات والمنازعات، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ .

أدب الاستئذان

(١٠) وعلَّم الناس أدب الاستئذان، عند دخول بيوت غير بيوتهم لما فى عدم الاستئذان من إزعاج أهلها ، والاطلاع على ما يكرهون اطلاع غيرهم عليه ، من أمورهم بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ .

الحث على الاتحاد

(١١) وحث على الاتحاد، بنهيه عن التنازع، الذى عاقبته الفَشَل، والخيبة، وذهاب القوة فى قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

حفظ الأمانة والعدل فى الأحكام

(١٢) وأمر بحفظ الأمانات وردّها الى أهلها، وأوجب على الحكام إذا حكموا أن يَتحَرَّوا الحق، ويحكموا بالعدل، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

الشُّورَى فى الأمور

(١٣) شرع الشُّورَى (أساس الحكم الدستورى) فى الأمور العامة، حتى لا ينفرد حاكم بالرأى، دون أهل الحَلّ والعَقْد، من العلماء، والمفكرين من الأمة، لما فى الشُّورَى من إصابة

شاكلة الصواب، فى أمور الناس ومصالحهم، فقال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ وقال فى سياق مدح المؤمنين : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .

الوفاء بالعهود

(١٤) ونبه على أن الوفاء بالعهد واجب، سواء أتعلق بالمال أم بغيره، لأن الغدر يُزِيل الطمأنينة، وينزع من النفوس الثقة، وفى ذلك اختلال نظام المعاملات، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

الاستعداد للطوارئ

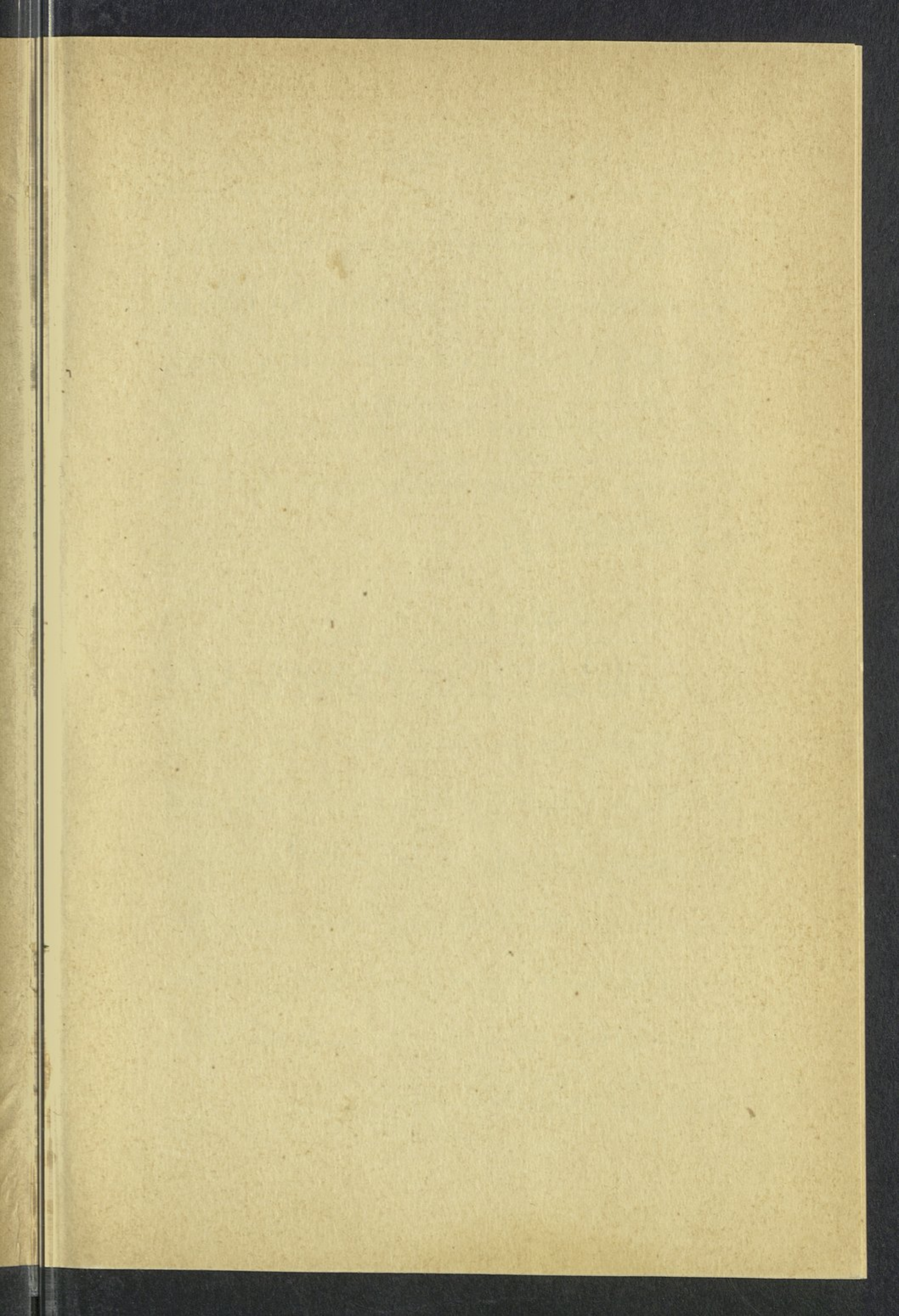
(١٥) ونوه بشأن القوة، وأمر بالاستعداد، والتأهب للطوارئ، وبيّن أن ذلك يجعل الأمة مَهِيبَةً، مَرْهُوبَةَ الجانب،

وحث على الانفاق فى هذه السبيل ، وهى سبيل الله تعالى ، وطريق نصرة دينه ، ووعد من أنفق ، أن يؤتيه جزاء ما أنفق ، لا يُظْلَم منه شيئا ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ .

ما تقدم قليل من كثير

هذه نُبْذَة مُوجَزة ، تبيِّن بعض ما تضمنه الكتاب الكريم ، من الأحكام الخاصة ، والشؤون العامة ، سقناها ليُعْرف أن القرآن الذى هو أساس الدين الاسلامى ، قانون عام ، يكفُل سعادة الدنيا ، وصلاح أمر الناس فيها ، كما يكفُل سعادة الأخرى باجتناب ما نهى عنه ، من سيئات الأعمال ، وذميم الخصال ، و بفعل ما أمر به من الأعمال الصالحة ، و بالتحلى بما حثَّ عليه من الأخلاق الكريمة ، وما قدَّمناه قليل من كثير ، مما تضمنه هذا الكتاب العزيز ، فَآمِنُوا بِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَرْشُدُونَ .

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٥٢١/٢٠٥٠)



إصلاح خطأ

سطر	صفحة	خطأ	صواب
٨	١٧	وفى هؤلاء	وفى مثل هؤلاء
١	١٩	وكَلِمَةَ	وكلمةُ
١٣	٣٢	تزيهه	تنزيهه
٣	٣٣	أتبعه	آتبعه
٦	٣٣	حق	حقا
٣	٤٨	فاستمع	الى فاستمع
٨	٥٠	فِرسان	فُرسان
٥	٥١	ليربؤا	ليربئوا
١٠	٦٩	العراقيين	العراقين
٣	٧٥	رده	ردة
١	٨٩	وَغَسْلَ ما سواى	وغسلَ ما سوى
٤	٨٩	كُتُبَ	كُتِبَ
٧	٩٨	جمع	جميع
٢	٩٩	تضيع	تضييع
١١	١٠٣	يتزوجوا	يتزوجون
١٣	١٠٤	نحورا	نخورا

